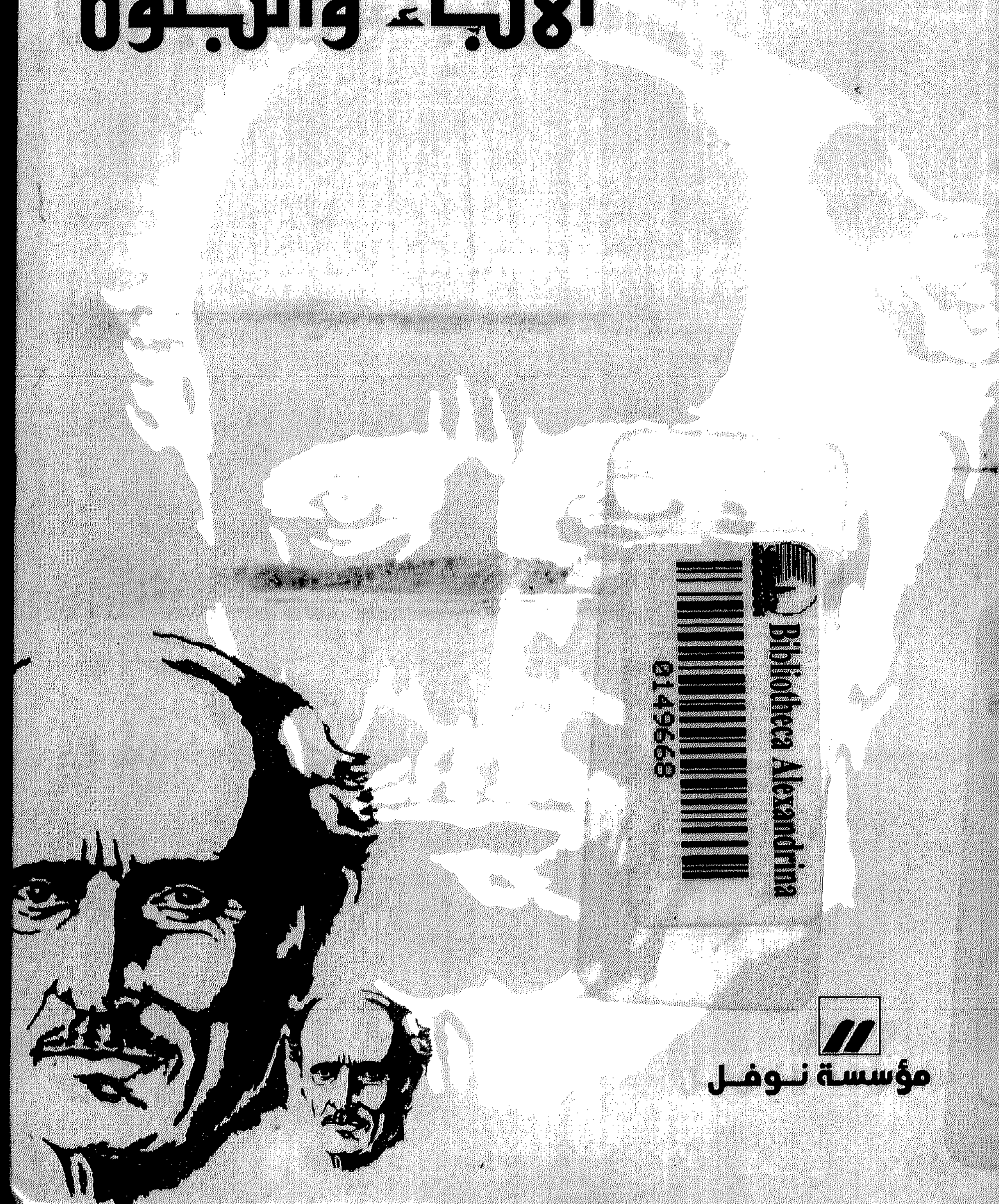
ميخائيل نعيمه

الآباء والبنون



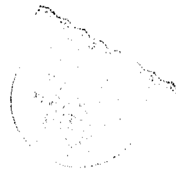
مؤسسة نوفل

الآباء والبنون

ميخائيل نعيمه

الآباء والبنون

تمثيلية في أربع فصول





مؤسسة نوفل ش.م.م
بيروت - لبنان

الطبعة التاسعة
١٩٨٩



© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل، شارع المعماري
تلفون ٣٥١٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤، تلكس ٤٤٢١٠ نوفل
ص. ب ١١/٤١٦١، بيروت، لبنان

مقدمة الطبعة الثانية

كتبتُ هذه الرواية على أثر تخرُّجي من الجامعة في الولايات المتحدة صيف ١٩١٦ . وفي خريف العام عينه حملتها معي إلى نيويورك حيث نشرتها مجلّة « الفنون » في أعداد مسلسلة ثمّ أصدرتها في كتاب عام ١٩١٧ .

ونفدت الطبعة الأولى من زمان . فكنتُ أتهرّب من إعادتها لأمرين : أوّلهما أنّ المسرح العربي خطا خطوة واسعة منذ العام ١٩١٧ . فلا بدّ من تعديل كبير في نهج الرواية . وثانيهما أن قسماً غير يسير من الحوار يجري باللغة العاميّة . والمشكلة في ضبط كتابة هذه اللغة ولفظها ما تزال قائمة كما كانت منذ أجيال وأجيال . ومن ثمّ فتفكيري وذوقي هما اليوم غير ما كانا في العام ١٩١٧ .

إلا أنّني ، وهذه الرواية محصيّة في عداد مؤلّفاتي ، وموضوعها ما نصلت جدّته بعد ولن تنصل ، وفيها من دقيق التحليل والتصوير ما يشفع بأماكن الضعف فيها ، عدت فنزلت عند رغبة الكثير من قرائي وألقيت عليها نظرة سريعة . فحذفت وأضفت من غير أن أمسّ جوهر الموضوع أو أغيّر في تصوير

الأشخاص ومساق الحوادث . وما شئت أن أتمادى في التغيير والتبديل مخافة أن تخرج الرواية وكأنّها مخلوق جديد .

توقّفت طويلاً عند اللغة العامية وحاولت غير مرّة أن أستعيض عنها بالفصحى . ولكنّني ، في كلّ مرّة ، كنت أشعر كالولد يُكره على جرعة من دواء كريه الطعم والرائحة. فيعصيني القلم ولا يرضى أن يجعل أمّ إلياس — مثلاً — تقول : « ليتني أعرف كيف تسنّى لهذا الملعون أن يدخل عقل زينة فيقلب أفكارها بطناً لظهر » بدلاً من قولها :

« لو بعرف بسّ ها اللعين — ها الابن ستين برطوشه — كيف دخل بعقلها وقَلَبْها خلفاني قدماني ؟ »

ذلك مثل من أمثلة . أمّا الكلام في أيّهما أكثر بلاغة : الفصحى أم العاميّة . فكلام لا طائل تحته . إذ إن لكلتيْهما عبقريّة خاصّة بها . فما أكثر المواقف — وعلى الأخص في الروايات من تمثيليّة وغير تمثيليّة — التي تبدو فيها الفصحى ركيكة ، والعاميّة بليغة . وعلى العكس .

إلاّ أن البلية ليست في اضطرار الروائي إلى العاميّة في بعض المواقف . بل في أنّنا لا نستطيع ، بما لدينا من وسائل ، أن نضبط كتابة العاميّة ولا أن نعمّمها . فالعاميّة حتى في بلد صغير كلبنان ، تختلف لهجتها باختلاف المناطق . وهي غيرها في سوريا وفلسطين والعراق ومصر وسواها من البلدان العربيّة .

وهكذا فاللجوء إليها يُكرهنا ، رغم أنوفنا ، على صبغ ما نكتبه بالأصباغ الإقليميّة والطائفيّة .

ليست الفكرة التي تقوم عليها « الآباء والبنون » إقليميّة أو طائفيّة . إلاّ أنّها تغدو كذلك بفضل ما في الرواية من حوار عامي ، لبناني ، ومن أشخاص ينتمون إلى طائفة دون سواها . فلمن شاء تمثيلها خارج لبنان ، إذا هو أُوتي الذوق المسرحي ، أن « يترجم » العاميّة اللبنانيّة إلى عاميّة القطر الذي يجري فيه التمثيل . وذلك من غير أن يمسّ الجوهر . ولعلّ الزمان الذي خلق لنا مشكلة العاميّة والفصحى يعود فيحلّها من غير أن يخلق لنا ما هو أصعب منها .

بسكنتا – لبنان ٩ نيسان ١٩٥٣ م . ن .

مقـدمة الطبعة الأولى

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم أن المدنيّة الغربيّة نفثت في حياتنا الجميلة ، الطاهرة ، الراتعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين ، روح فسقٍ وخلاعة وكفر . وتغنّى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا : هيّا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب !

أمّا نحن فنرى من الأفضل أن نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء تاركين لهم حقّ تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس إذا أرادوا ، على أن لا يعارضونا إذا نحن تجاسرنا أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا .

إنّ ما يدعوه البعض « نهضة أدبيّة » عندنا ليس سوى نفحة هبّت على شعرائنا وكتّابنا الناشئين من حدائق الآداب الغربيّة فدبّت في مخيّلاتهم وقرائحهم دبيب العافية في أعضاء المريض بعد إبلاله من سقم طويل . والمرض الذي ألمّ بلغتنا أجيالاً متوالية كان شللاً أوقف فيها حركة الحياة وجعلها ، بعد عزّها السابق ، جيفة تتغذّى بها أقلام الزعانف المستعبَدين وقرائح « النظّامين » والمقلّدين . أمّا اليوم فقد رجعنا إلى

الغرب ، الذي كان بالأمس تلميذنا ، لنقتبس عنه أمثولة جعلناها حجر زاوية « نهضتنا الأدبيّة » . وتلك الأمثولة هي أن الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان ، وأن الأدب يتوكّأ على الحياة ، والحياة على الأدب . وأنّه — وأعني الأدب — واسع كالحياة ، عميق كأسرارها ، وهو ينعكس فيها وتنعكس فيه . لقد أدركنا — بفضل الغرب — أن نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب ، والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة . لذلك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا المحدثين الذين كانت لهم الجرأة على اقتحام تلك الحدود المقدّسة . وانتقلت إلينا — بفضل الغرب كذلك — الرواية ، أو ما يدعونه بالإنكليزيّة « نوڤل » وبالفرنسيّة « رومان » . فوجدنا فيها مجالاً واسعاً لوصف الحياة والتأثير في العقول والقلوب بواسطة القلم ، وأدركنا أن النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع ، والإكثار من الألفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم ، وتحبير المقالات المملّة في مواضيع مبتذلة . فقام بيننا بعض من جرّبوا أن يمثلوا حياتنا اليوميّة في روايات وطنيّة .

وهذه خطوة إلى الأمام .

لكن « نهضتنا الأدبيّة » لا تزال في القُمُط ، وما نطقت به حتّى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيّد اللسان ،

محدود العواطف ، ضعيف العضل . وقد لا يحقّ لنا أن نلومها على هذا الضعف . لكنّنا لا نكتم أن رجاءنا بمستقبلها يضعف عندما نراها قد أهملت باباً كبيراً من أبواب الأدب لو خيّر الغرب بينه وبين بقيّة الأساليب الكتابيّة لاختاره دونها . ونعني — الدراما .

رافقت الدراما الآداب الغربيّة منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركناً من أركانها . وأقام لها الغربي المعاهد التمثيليّة فأصبحت هذه جزءاً من حياته اليوميّة كالمدرسة. والبيت والكنيسة . ففي المسرح تجد نفسه الجائعة ، المثقلة بأتعاب العمل وهموم الحياة ، راحة وتعزية وقوتاً . من أوحال عيشته التي يُشابه صباحُها مساءها ويومُها أمسَها ترتفع روحه إلى عالم تجول فيه المشاعر البشريّة بين جميلها وقبيحها ، وضعيفها وقويها ، وشريفها ودنيئها ، إنّه يبصر بعينه على المسرح بشراً مثله غائصين في معركة الوجود ، يكشفون له أسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد في هذه الأسرار وبين تلك المخبآت قسماً من الذات التي يدعوها « أنا » ويستعين ببعضها على إصلاح نفسه والإضافة إلى خزانة اختباراته . يضمّ المؤلف والممثل قواهما — الأوّل بأفكاره والثاني بصوته وحركاته — ليخترقا حرمة انفراده الذاتي ، فيدخلان زوايا قلبه ، ويمسان كلّ أوتاره ، ويفتّشان طيّات ضميره ، ويحرّكان دولاب

أفكاره — وبالإجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود . فيشعر أنّه كائن حيّ .

ربّ كلمة وقعت في أذنه فاحتضنها للحال عقله واختمرت بها روحه ؛ أو ربّ حركة من يد الممثل انتفض لها قلبه ؛ أو ربّ مشهد هزّه بكليّته كما تهزّ العاصفة شجرة من جذورها .

لكن هذا التأثير في السامع والنّاظر لا يمكن إحداثه إلاّ إذا كانت الرواية مشهداً حيّاً من مشاهد الحياة الحقيقيّة وكان الممثل قادراً على فهم أفكار المؤلّف وغايته وتفسير هذه الأفكار وتأدية تلك الغاية إلى السامع بواسطة النبرات والحركات . ولذلك يتوكّأ المؤلّف على الممثّل ، والممثّل على المؤلّف . وغير خفيّ أن أفضل الروايات في يد ممثّل ضعيف تُضيع كل قوّتها ورونقها . وبالعكس — فالممثّل الحاذق يُلبس أحياناً أبخس الروايات حلّة جمال وقوّة . ولذلك رفع الغرب شأن الممثّلين كشأن المؤلّفين ، فأجزل لهم العطاء ، وأحاطهم بالشهرة في الحياة ، وطيّب ذكرهم بعد الموت .

فماذا فعلنا نحن ؟

نحن لا نزال ننظر إلى الممثّل نظرنا إلى « بهلوان » ، وإلى الممثلة نظرنا إلى عاهر ، وإلى المسرح كما لو كان مقهى ، وإلى التمثيل كأنّه ضرب من العبث واللّهو .

إنّ شعبنا لم يدرك بعد أهميّة فن التمثيل في الحياة لأنّه لم يرَ

بعدُ روايات تمثّل أمامه مشاهد من حياة يعرف ألفها وياءها — لم يرَ بعدُ نفسه على المسرح . واللّوم عائد على كتّابنا لا على الشعب. فجلّ ما قدّمناه حتى الآن إلى الشعب من الروايات التمثيليّة ينحصر في بعض روايات معرّبة أكثرها من سقط المتاع ، وكلّها غريبة عنه ، بعيدة عن أذواقه ، قصيّة عن مداركه .

لست أشكّ قط في أنّنا سنرى عندنا ، عاجلاً أو آجلاً ، مسرحاً وطنيّاً تمثّل عليه مشاهد حياتنا القوميّة . إنّما يقتضي لذلك قبل كلّ شيء أن يحوّل كتّابنا أنظارهم إلى الحياة التي تكرّ حولهم كلّ يوم ، بعجرها وبجرها ، وأفراحها وأتراحها ، وجمالها وقبحها ، وشرّها وخيرها ، وأن يجدوا فيها مواد لأقلامهم — وهي غنيّة بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها .

يبشرنا الانقلاب الذي طرأ أخيراً على آدابنا بقدوم مسرح وطنيّ وإن تكن العقبات في طريقه لا تزال كثيرة . من هذه العقبات وهْم اجتماعي ما برح راسخاً في عقول الكثيرين وهو أن المسرح يفسد الأخلاق الطاهرة — وعلى الأخص أخلاق البنات والنساء . رحمتك يا ربي ! ومنها فقرنا إلى الكتّاب الروائيّين والروايات التمثيليّة الوطنيّة . لكن أكبر عقبة صادفتها في تأليف هذه الرواية — وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواي — هي اللّغة العاميّة والمقام الذي يجب أن

تعطاه في مثل هذه الروايات . ففي عرفي — وأظن الكثيرين يوافقونني في ذلك — أن أشخاص الرواية يجب أن يخاطبونا باللغة التي تعوّدوا أن يعبّروا بها عن عواطفهم وأفكارهم ، وأنّ الكاتب الذي يحاول أن يجعل فلاّحاً أميّاً يتكلّم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلّفات اللغويّة يظلم فلاّحه ونفسه وقارئه وسامعه ، لا بل يُظهر أشخاصه في مظهر الهزل حيث لا يقصد الهزل ، ويقترف جرماً ضدّ فنّ جماله في تصوير الإنسان حسبما نراه في مشاهد الحياة الحقيقية .

هناك أمر آخر جدير بالاهتمام وذو علاقة باللغة العاميّة — وهو أن هذه اللغة تستر تحت ثوبها الخشن كثيراً من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة وأمثاله ومعتقداته التي لو حاولتَ أن تؤديها بلغة فصيحة كنتَ كمن يترجم أشعاراً وأمثالاً عن لغة أعجميّة. وربّما خالفنا في ذلك بعض الذين تأبّطوا القواميس وتسلّحوا بكتب الصرف والنحو كلّها قائلين : إنّ « كل الصيد في جوف الفرا » ، وأن لا بلاغة أو فصاحة أو طلاوة في اللغة العاميّة لا يستطيع الكاتب أن يأتي بمثلها بلغة فصحى . فلهؤلاء ننصح أن يدرسوا حياة الشعب ولغته بإمعان وتدقيق .

إنّ الرواية التمثيليّة ، من بين كل الأساليب الأدبيّة ، لا تستطيع أن تستغني عن اللغة العاميّة . إنّما « العقدة » هي في أنّنا لو اتّبعنا هذه القاعدة لوجب أن نكتب كلّ رواياتنا

باللغة العاميّة ، إذ ليس بيننا من يتكلّم عربيّة الجاهليّة أو العصور الإسلاميّة الأولى ، وذلك يعني انقراض لغتنا الفصحى . ونحن أبعد النّاس عن أن نبتغي هذه الملمّة القوميّة . فأين المخرج ؟

عبثاً بحثتُ عن حلّ لهذا المشكل . فهو أكبر من أن يحلّه عقل واحد . وجلّ ما توصّلت إليه بعد التفكير الطويل هو أن أجعل المتعلّمين من أشخاص روايتي – كداود وإلياس وزينة وشهيدة وناصيف بك – يتكلّمون لغة معربة . والأميّين – كأم إلياس – يتكلّمون اللغة العاميّة . أمّا خليل سماحه – وإن لم يكن أميّاً تماماً – فقد رأيت من الأحرى أن أجعله يتكلّم العاميّة لأنّها توافق طباعه ومداركه . وكذلك موسى بك في حديثه مع أم إلياس وفي بعض المشاهد التي تليق بها العاميّة أكثر من الفصحى . لكنّني أعترف بإخلاص أن هذا الأسلوب لا يحل « العقدة » الأساسيّة . فالمسألة لا تزال بحاجة إلى اعتناء أكبر رجال اللغة وكتّابها .

والمشكل الآخر الذي وقفتُ أمامه حائراً سائلاً هو ضبط كتابة اللغة العاميّة بطريقة تزيل الالتباس والإبهام وتؤدي اللفظ المقصود . تركتُ أمر اللهجة التي تختلف كثيراً باختلاف المناطق إلى فطنة الممثّل وحذاقته . لكنّني أحجمت تهيّباً عن أن أضع لأجل هذه الرواية وحدها اصطلاحات لضبط الكلام

العامي . ونحن بحاجة ماسّة إلى هذه الاصطلاحات إذا أحببنا أن نقترب من الشعب ونهذّبه بأقلامنا .

إنّ العامّة تستعمل حروفاً لا وجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل E. O. الفرنسيّة والجيم المصريّة ، وتلفظ القاف في أكثر الأحيان كالهمزة . فيجب أن نضيف إلى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هذه الحروف . إنّما يجب أن تكون هذه الاصطلاحات عموميّة كي لا يحدث تبلبل وتشويش حيث نقصد انسجاماً ووحدة . فمن يقوم لنا بهذه المهمّة ؟ لو كان لنا مجلس أدبي أو شبه « أكاديمي » لألقينا على عاتقه هذا الأمر . أمّا ولا شيء من ذلك عندنا فهل تصدق الأحلام وتحمل الغيرة على اللغة العربيّة وآدابها بعض أدبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة دائمة تعنى بترقية اللغة والمحافظة عليها وتكييفها حسب حاجات الزمان والأحوال ؟

أفضّل ألاّ أقول شيئاً عن أشخاص الرواية أو عن الرواية ذاتها أكثر من أنّي حاولت أن ألج فيها جانباً ضيّقاً من موضوع حيوي وواسع في حياة الأمم جمعاء — وحياة شرقنا على الأخص . وأعني الخلاف الأبدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث . وإذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض كتّابنا الأوفر مقدرة منّي في معالجة شؤوننا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيليّة فقد نلتُ غايتي .

إذا شئنا أن نرفع آدابنا من المستنقعات التّي تتمرّغ فيها الآن فعلينا أن نسعى منذ اليوم لوضع أُسس متينة للمسرح العربي وذلك بتربية أذواقنا التمثيليّة ، وتعزيز الرواية الوطنيّة ؛ حتّى إذا نهضنا كانت « نهضتنا » نهضة جبّار أفاق من نوم طويل ، لا نهضة عاجز فتح عينه ليرى الموت أمامه .

نيويورك — ١٩١٧

الأشخاص

ام الياس	:	أرملة بطرس بك سماحه ، في الخامسة والخمسين
الياس سماحه	:	ابنها البكر ، في الثلاثين
خليل	:	ابنها الأصغر ، في الرابعة والعشرين
زينة	:	ابنتها ، في العشرين
داود سلامه	:	معلّم في مدرسة داخليّة ، في الثلاثين
شهيدة	:	أخته ، في الثانية والعشرين
موسى بك عركوش	:	كاتب في المحكمة ، في الخامسة والسبعين
ناصيف بك	:	ابنه ، شويعر ، خطيب زينة ، في الأربعين

الزمان : مطلع القرن العشرين

المكان : مدينة صغيرة في لبنان

الفصل الأول

« ردهة الاستقبال في بيت سماحه ، فيها ديوان إلى اليمين وآخر إلى اليسار وبعض الكراسي المبعثرة بدون ترتيب بينها ثلاثة مقاعدها من حرير . في الوسط طاولة عليها قنديل بترول بغطاء أحمر . على الحائط الأيسر صورة بطرس بك سماحه في إطار كبير مذهب. على بقيّة الحيطان أسلحة قديمة : سيوف وعدّة بنادق وخناجر ورمحان وصور قديسين وملائكة . في الحائط الأيمن نافذة واسعة وتجاهها في الحائط الأيسر باب . في حائط الصدر باب يؤدي إلى الخارج . الفصل صيف. النهار أحد . والوقت العصر . إلياس جالس إلى الطاولة يكتب . أمامه دواة ، حواليها كتب وجرائد وأوراق مبعثرة . يُطرق الباب » .

المشهد الأول

الياس — داود

الياس ادخل . ادخل .

(يتجه نحو الباب ويفتحه فيرى داود)

أهلاً ، أهلاً بصديقي داود . والحمد لله أن تنازلت فشرّفتنا بزيارة . لقد آن لهذا البيت أن يعرفك وتعرفه .

داود (يدخل على مهل متلفتاً حواليه)

بيت ؟! هذا متحف عاديات .

الياس وأنا واحد منها .

(يتكلف الضحك)

داود أنت أقدمها ، وأثمنها من غير شك . وما معنى هذه السيوف والخناجر والبنادق ؟ ما عهدي بك تعشق الحرب ومظاهرها إلى هذا الحدّ .

الياس بل إنّني أكرهها إلى أقصى حدود الكراهية .

داود إذن كيف ترضى أن تعيش في ظلّها ؟

الياس تفسير ذلك عند الوالدة . فهي أدرى منّي بتاريخ

هذا السيف أو تلك الطبنجة أو ذلك الرمح .
وأدرى بالغاية من عرضها على جدران بيتها ولو أنّها كانت الآن هنا لأخذت بيدك وقادتك إلى كلّ قطعة بمفردها وراحت تسرد عليك تاريخها .
والويل لك إذا أنت لم تصدّق كل ما ترويه لك .
فأنت إذ ذاك العدوّ اللدود ، بل الشيطان الرجيم .

داود لأنصرف إذن بسلام قبل أن تعود أمّك مخافة أن تطردني طرداً .
(همساً)
أم هي الآن في البيت ؟

الياس من حسن حظّك أنّها ذهبت مع شقيقتي في زيارة . لا خوف عليك منها . فأنت غريب .
والخوف كلّ الخوف على من كان مثلي ، وكان مكرهاً أن يعيش عيش المومياء في متحف للعاديات.
(بحرقة)
إنّي لأكاد أختنق يا داود . أختنق في دنيا تعيش في ماضيها وعيونها مكفوفة عن الحاضر والمستقبل .
حتى بتُّ أمقت الماضي ، وأمقت الحاضر ، وأمقت المستقبل . وبتّ أحسب الحياة وزراً ، وأحسب وجودي في هذا الكون ضِغثاً على إبّالة . لكنّ

قلبي ينفطر على فتاةٍ كأُختي زينة . أما رأيتها بعد ؟

داود لا . ما رأيتها . ولماذا ينفطر قلبك عليها ؟

الياس لأنّها جوهرة نادرة في يد تاجر أعمى .

داود ومن هو التاجر الأعمى ؟

الياس أمّي . إنّها امرأة عنيدة لا تطيق أن يعاندها أحد في شيء . وأولادها على الأخص . فهي تطلب منّا طاعة عمياء . ولا ترضى أن يكون لأيّنا رأي غير رأيها . رأس الحكمة ، في شرعها ، طاعة البنين والبنات للآباء والأمّهات .

داود وأيّ بأس في ذلك إذا كانت الأم امرأة صالحة ؟

الياس الصلاح وحده لا يكفي يا داود . بل لا بدّ مع الصلاح من فطنة — من ذوق — من دراية . وأمّي تكاد تكون من هذا القبيل رعناء .

داود مثلاً .

الياس مثلاً . جاءها رجل معروف في هذه المدينة بمكره ودهائه وانحطاط أخلاقه . واسمه موسى العركوش . جاءها يخطب زينة لابنه ناصيف . وابنه هذا شويعر من الذين قيل فيهم « وشاعر من حقّه أن نصفعه » . رجل تخطّى الأربعين ولا مهنة له ولا حرفة ولا وظيفة . فقبلت أمّي بدون تردّد .

ولماذا ؟ لأن آل العركوش من أعيان هذه المدينة . ولأن كلا الوالد والولد يحمل لقب بك . فهما « من خلّ بقلنا » — من طبقتنا . . .

داود ألعلّهما ، فوق ذلك ، من الأثرياء ، من كبار الملاّكين ؟

الياس يتظاهران بالثروة وهما ، على ما أسمع ، يعيشان بالدّين .

داود وأختك — أراضية هي ؟ أما اعترضت بشيء ؟

الياس أختي تكاد تكون راهبة في دير . فهي تجهل العالم وأحواله وطرقه كلّ الجهل . ورأس الحكمة ، في اعتقادها ، طاعة الوالدين . أما قالت أمّي إنّ زواجها من ناصيف العركوش أمر صواب ؟ إذن هو صواب .

داود وأنت ؟ أما اعترضت ؟ أما حاولت إقناع أمّك أو أختك ؟

الياس أنت تهذي يا صديقي . ولا عجب فأنت تجهل طباع أمّي . ولا تعرف أختي . أقول لك إن هذا البيت أصبح لي قبراً ، وحياتي فيه أصبحت جحيماً . فلا تلمني إذا أفقتَ غداً وأخبرك مخبر أنّ صديقك الياس سماحه قد شنق نفسه في

السنديانة التي عند مدخل المدينة .

داود (يضحك هازئاً)

سينقطع بك الحبل . ما من مشنقة تستطيع أن تحمل جبّاراً مثلك ...

الياس لا تهزأ يا داود . فما أنا بمازح . لقد سئمتُ الحياة . سئمتها حتى الغثيان . سئمت ترجيعها وترديدها ولفّها ودورانها لغير ما طائل .

« نروح ونغدو لحاجاتنا
وحاجة من عاش لا تنقضي . »

داود (مازحاً)

ما دمتَ تنطق بالشعر فلا خوف عليك من المشنقة . بل الخوف على المشنقة منك .

(يضحك)

الياس (بشيء من الحدة)

دعنا من المزح يا داود . وهات كلّمني بجدّ : ما معنى حياة شقاؤها أضعاف أضعاف هنائها . وهي تبتدىء في ظلمة الرحم وتنتهي في ظلمة اللّحد ؟

داود (بجد)

أمّا أن شقاءها أضعاف أضعاف هنائها فقول

يحتاج إلى ميزان أدقّ بكثير من الذي تملكه وأملكه ، أو يملكه أيّ النّاس . وأما أنّها تبتدىء في ظلمة وتنتهي في ظلمة فلا تنسَ أن هنالك بروقاً تخترق الظلمتين .

الياس إنّها لبروق خُلَّب .

داود عندك لا عندي . ولا عند الملايين المتعلّقين بأذيال الحياة ، فما يطيقون التخلّي حتّى عن دقيقة منها بإرادتهم .

الياس ولكنّهم سيرغمون في النهاية على التخلّي عنها قسر إرادتهم .

داود بإرادة مَن ؟

الياس لست أدري .

داود ولعلّ هذا الذي لا تدريه أنت تدريه الإرادة الّتي تسير بنا من ظلمة الرحم إلى ظلمة القبر ، وتُرينا بين الظلمتين بروقاً تحبّب إلينا الحياة .

الياس أمقتنع أنت أنّ بعد الموت حياة ؟

داود أنا مقتنع بأن الإرادة الّتي أحاطتنا بكل هذه العجائب ثمّ جعلتنا نشعر بها ونندهش لها ونندفع في التفتيش عن غاياتها — إن تلك الإرادة لن تخذلنا في النهاية إذا نحن أحسنّا تفهّمها والاسترشاد

بنورها . ومن ثمّ . . .

(يقطع حديثه إذ ينفتح الباب بغتة وتدخل منه أم الياس ومن بعدها زينة)

المشهد الثاني

الياس — داود — أم الياس — زينة

ام الياس أوفْ . أوفْ . هالشّوبْ .

(تروّح بمروحة بيدها)

شي بْيِسلق .

(إلى الياس)

كيف إجاك قعود أنت طول النهار بالست ؟

— يـّما بعدك بتشارع ربّنا ؟

(مشيرة إلى داود)

مين حضرة الشاب ؟

الياس هذا صديقي المعلّم داود يا أمّي . هو يعلّم في مدرسة عين الدلبة الداخليّة .

ام الياس (بكبرياء)

والنِّعْمْ .

داود لي الشرف يا خالتي ام الياس .

الياس (مشيراً إلى زينة)

وهذه أختي زينة يا داود .

داود لي الشرف يا ستّ زينة .

ام الياس (بعد أن تجلس)

مين حضرة الشاب ؟ (تروّح)

الياس قلت لك إنّه المعلّم داود .

ام الياس (بغضب)

فهمت أنّه المعلّم داود . لكن فكري — مينو . شو دينه — روم ؟ موراني ؟

داود أنا يا خالتي ، لا روم ولا ماروني .

ام الياس بلا دين لكن — هرطوقي ؟ . . آ . الرحمة والسترة منّك يا ربّي . شو هالجيل الكافر .

داود لست بكافر يا خالتي ام الياس . أنا أؤمن بالله ورسله وأنبيائه من كلّ قلبي .

ام الياس يي — نجّينا يا ربّي ! مسلم ويهودي ! لكن إنت مْن ِ اللّي صلبوا المسيح .

داود أريد أن أقول إنّي أعتبر يسوع وموسى ومحمّداً على السواء . في العالم إله واحد — وهو إله الجميع . ليس مسيحيّاً ولا مسلماً ولا يهوديّاً .

ام الياس بحاكيك بالشرق بتجاوبني بالغرب .

(تروّح وقد فرغ صبرها)

وين بتصلّي ؟ بكنيسة الروم يمّا الموارني يمّا البِسترَنْد (تعني البروتستانت) يمّا بالجامع ؟

داود	أصلّي في قلبي يا خالتي – لا في كنيسة الروم ولا الموارنة ولا البروتستانت ولا في الجامع .

ام الياس	شو لنا بالكنايس لـكـَنْ إذا كنّا بدنا نصلّي بقلوبنا ؟ شو لنا بالخوارنة والمطارنة ؟

داود	من لا يقدر أن يعبد ربّه إلا في الكنيسة فليذهب إلى الكنيسة . ومن لا يقدر أن يخاطب خالقه سوى بلسان كاهن أو شيخ فليتبع كاهنه وشيخه . أما أنا فأراني في غنى عنهما .

ام الياس	وبتقول إنّك بتعتقد بالمسيح كمان ؟

داود	نعم .

ام الياس	وعالكنيسة ما بتروح . وخوري مطران ما بتعرف ؟

داود	نعم .

ام الياس	وبعدك بتقول إنّك مسيحي ؟

داود	نعم .

ام الياس	(وقد فرغ صبرها)

يبي نجّينا يا ربّي !

(تنهض غاضبة وتخرج من الباب إلى اليسار . سكوت . أم الياس ترجع بعد قليل . إلى داود)

شايف ها الصورة ؟

(تشير إلى صورة زوجها)

هَيْ صورة المرحوم بطرس بيّك . قتل بزمانه

عشرين درزي بهالسيف هادا وعشر متاولي بهالسيف هادا . الباشا كان يحسب له حساب . كان يفرّق عقل عالدني كلّها . لا مسلم ولا درزي كان يسترجي يتنفّس بوجهه . مع هذا كلّه بحياتي وأبد زماني ما شفته يوم حدّ قعد بالبيت وما راح عالكنيسة . . .

الياس (يقاطعها)

أنا قد أخبرته عن ذلك يا أمّي .

ام الياس خبّرته ؟ خبرته عن خالك شاهين والكلّ ؟ هاداك كان زنده يهزّ الأرض . وحده قتل أربعين كردي بخنجره . شايف هالرمح ؟

(تشير إليه على الحائط)

الياس (يقاطعها)

قد أخبرته عن خالي شاهين كذلك يا أمّي .

ام الياس الله ينجّينا شو هالجيل الكافر . (إلى داود) ابني . بدك أكثر من ابني ؟ ما بيروح عالكنيسة إلاّ بألف عصا . اليوم عاندني وعاندني وكسر كلمتي وما راح . مثل ما يكون بطرس بيك سماحه مش بيّه . لكن خليل — رضا قلبي عليه — بيروح عالكنيسة كل عيد وكل حد . (تخرج)

المشهد الثالث

الياس — داود — زينة

الياس (إلى داود بعد سكوت قصير)
هل رأيت بعينك وسمعت بأُذنك ؟

داود نعم — قد سمعت ورأيت . لكنّني لم أرَ ما يصدع العزم ولم أسمع ما يرسل اليأس إلى القلب .

الياس والله لقد صدق المثل « الحرب بالنظارات هيّن » . أتعني أنّك لو كنت مكاني لكنت تحاول أن تغيّر معتقدات أمّك القديمة ، وتعلّمها مبادىء جديدة كما لو كانتْ طفلة صغيرة ؟

داود لم أفقد بعد عقلي لأحاول المستحيل . لكني أعجب إذ أراك ، مع كلّ درسك وفهمك ، لم تدرك حتى الآن أن اختلاف الآباء والبنين في الأذواق والميول والمعتقدات أمر طبيعي جدّاً . ولولاه لما كان ما ندعوه تقدّماً .

الياس وما حيلتك بأم تطلب الطاعة العمياء من بنيها حتى وإن أدّى ذلك إلى كارثة لها ولهم ؟

داود قيل : «أكرم أباك وأمّك .» وما قيل : «أطيع أباك وأمّك حتّى وإن كانا على ضلال .» إن تكن طاعة الحق فضيلة ، فعصيان الباطل فضيلة أكبر . والباطل قد يأتيك من أمّك مثلما قد يأتيك من الغريب . وما عليك في الحالين إلاّ أن تحاربه بكلّ ما أُوتيت من قوّة .

الياس لو شئت أن أمتثل لإرشادك لتحوّل هذا البيت إلى ساحة حرب .

داود وأيّ بأس في ذلك ؟ أليست الحياة كلّها حرباً ؟ ولو لم تكن حياتنا حرباً دائمة على الجهل ، على الظلم ، على الفقر ، على الضعف ، على الذلّ لما كانت حريّة بأن نحياها . إنّما نتعشّق الحياة لا كما هي ، بل كما نريدها أن تكون . وفي ذلك سرّ تعلّقنا بأذيالها . ولن ننفكّ في حرب معها حتّى يكون لنا ما نريد .

الياس أأحارب أمّي ؟

داود بل حارب ما فيها من ضلال بما فيك من حقّ .

الياس وهل حاربتَ والديك ؟

داود (بصوت منخفض ترافقه تنهيدة)

لقد أراحاني من الحرب إذ أدركتهما المنون قبل

أن أدركت سنّ الرشد . . . (سكوت)

الياس (هازئاً)

حبّذا لو نتبادل الأوضاع فتأخذ على عاتقك تربية أم الياس وآخذ على عاتقي تربية تلاميذك . إذن لضحكتُ ملء شدقيّ عندما أراك مشمّراً وهارباً من وجه أم الياس لا تلوي على شيء .

(يضحك . زينة تبتسم ابتسامة مكبوتة)

داود (ضاحكاً)

بل أنت الذي ينهزم مشمّراً عن ساقيه .

الياس لا تنسَ يا صديقي أن أم الياس تمثل جيلاً — بل أجيالاً — من العقائد والخرافات والأوهام المتأصلة في النفوس تأصّل الجذور في التراب . وهذه ليس من السهل اقتلاعها . والأغلب أنّها تقضي عليك قبل أن تقضي عليها . عد إلى رشدك يا داود . فأنت لن تقتلع جذراً حتى ينبت مكانه ألف .

« وهل يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟ »

داود ليهدم الهادمون ما شاؤوا . فذلك لن يثنيني عن البناء . ومن ثمّ فلي شغف بالهدم مثلما لي شغف بالبناء . والذي لا يهدم لا يبني .

الياس اهدم ما شئت . ولكن حذار أن تطمرك أنقاض ما تهدم . وإنّي لأخشى أن يكون ذلك نصيبك في النهاية ، وأن لا أستطيع انتشالك . وهناك الطامة الكبرى . (يضحك)

كأنّي بك تحاول نقل البحر في قمع بلوطة . وذلك هو الجنون بعينه . أليس كذلك يا زينة ؟

(زينة تحمر خجلا وتطرق)

(خليل يغني خارج الباب بصوت أجش : جننتينا . . . يا حلوه – يا بيضا وجننتينا . . . يفتح الباب بيساره ويقف مخاطباً رفيقاً خارجاً . . .)

« بشوفلك الليلة بقهوة الجسر . آ ؟ الساعة ثمانية . أوعى تنسى ! سلّم ! »

(يدخل مغنياً « يا حلوه – يا بي . . . » يقف في الباب منبهتاً وقد رأى الحضور داخلا)

المشهد الرابع

الياس – داود – زينة – خليل

خليل هُوْبْ . . . (واضعاً يده على فمه)

يا عيب الشوم . بَرْدُون . بردون . مِيل بردون مِسيه . (إلى زينة) بشوفِك بالبيت – ما رحتيش

تزوري سعادة البيك اليوم ؟ قه . قه . قه .

(يستخرط في الضحك)

عريسك عريس يا أختي ما شا الله ! الله يخلّي لك ياه . ضحكنا عليه ضحك اليوم حتى ما عاد لنا ضلاع . قه . قه . قه .

(ضارباً كتف الياس بطرف عصاه)

بتعرف قهوة الجسر يا الياس ؟

الياس أعرفها .

خليل اجتمعنا هونيك ثلاثة : العبد الفقير وحنا سركيس ومخايل عون — ثلاثة الله يكون بالعون — من اللي نزعوا الدبس عن الطحينة . شويّ وهو فايت ناصيف بيك . مصنّف قصيدة طويلة عريضة . وجايبي يقرالنا هيه . سمعناله سمعناله تانعسنا . ساعتها غمزني مخايل عون . هات يا صبي خمسانية هات غيرها . تفضل يا ناصيف بيك . ناصيف بيك لـمّن شاف بنت نوح طوى قصيدته وحطّها بجيبته . وأوّل قدح . ثاني قدح . ثالث قدح — ناصيف بيك دارت معه الأمور . دقّ بوكر يا شباب . ناصيف بيك رفع إيده قبل الكل . أوّل فتّ . ثاني فتّ . ناصيف بيك ربحان . ثالث فت . رابع فت —

ناصيف بيك بعده ربحان . حنا سركيس قبّعت معه الأمور . فتّيت الورق . قال مخايل عون « باس » . ناصيف بيك — باس . سركيس غمزني وشلح ليرة . ناصيف بيك قال — هي ليرتين بعد . سركيس شلح ثلاثة . ناصيف بيك خمسة . سركيس عشرة . ناصيف بيك بالآخر قبّعت معه . شال كل شي ربحه وكل شي كان معه — تلاتين ليرة — وشلحها عالطاولة . سركيس شافو . فتح ورقو البيك : أربعة أسّ . ساعتها فتح ورقو سركيس : ريّا . بنت . أعرج . عشرة . تسعة . كلّهم ديناري . قه . قه . قه .

الياس وهذا ما يسمّونه في لعبة البوكر ؟

خليل ستريت فلوش . بياكل الأربع اسوس . قه . قه . قه .

(يستخرط في الضحك)

يا ريتك شفت البيك هاك الساعة . قه . قه . قه . جنس اللون ما بقى في وجهه . أصفر متل الزعفران . بعلمك كان يضحك وينظم أشعار . بدقيقه تشّ متل التلّيعه . وما حاجِتْ البيك مصيبته — ابن عون صار يتمرقع عليه والكل: انظم لنا قصيدة عن البوكر يا ناصيف بيك . هاتوا عرق . جابوا

عرق . عندي — عندك . البيك نسي التلاتين ليرة وصار يغني أشعار . أنا وسركيس فِلّينا . والبيك وابن عون قاعدين . عندي — عندك فِلّينا والبيك يغني :

البوكر قرّح لي قلبي قلبي قد قرّح لي البوكر
أسّ أسّ أس أس قدّرت الربح بها مسوكر
لكن ماذا يجديك الأس إذا كان الحظ . . .

الياس شعر بديع ! أخانته القريحة في القافية الأخيرة ؟

خليل بيوصل لهون وبيضرب الطاولة بإيده — لعن الله القوافي . تركناه وبعده بيفتّش عا قافية . قه . قه . قه . هيقْ ! البوكر قرّح لي قلبي . قه . قه . قه . لو خسرلو شي ماية ليرة بفرد قعده ترى عا أي لحن كان بيغنّي ؟ قه . قه . قه .

(ام الياس تدخل فجأة من باب اليسار)

المشهد الخامس

الياس — داود — زينة — خليل — أم الياس

خليل بردون . ملّ بردون ، ماما ، كنتِ نايمه ووعّيتك؟ يلعن ساعة الشيطان .

ام الياس (بغضب)
انت بتوعّي الموتى من قبورهم . عا أيش هالضحك كلّه ؟ ما بسمعك إلاّ بتضحك .
(إلى زينة) وانت أيش بعدك قاعدي تعملي هون ؟
(زينة تنهض للخروج ولا تخرج)

خليل كنت عن خبّر الياس وحضرة الأفندي (مشيراً إلى داود) شو الاسم بالخير ؟

داود داود سلامه .

خليل عبد ربّك العفو ! المعلّم داود من مدرسة عين الدلبه — مش هيك ؟ والنعم والسبع تينْعام . سمعت . سمعت بصيتك . مش حضرتك اللي طالع بديانه جديده ؟
(إلى أمه) كنت عن خبّر الجماعه عن ناصيف بيك . خسر تلاتين ليره اليوم عافرد قعده . وطَرَقْ سكْره يا امّي عالفكر .

ام الياس انت لو بتضبّ لسانك ورا سنانك ما كان في أحسن منّك . بزماني ما شفت أطول من لسانك وأكتر من حكيك . شو عن تقول أنو ناصيف بيك خسران بالقمار وسكران والله أعلم ايش بعد ؟ أنا بعرف ناصيف بيك وبعرف انّو ولا

بزمانو لعب بالقمار ولا بزمانو شرب قدح عرق . وبعد هدا وكلّه حلّك تنهم انّو ناصيف بيك خاطب اختك . وانّو مش لازم تفتح تمّك وتحكي عليه قدّام الغريب والقريب فهمت ؟

خليل قه . قه . قه . ما أبسط قلبك يا أمّي ! ناصيف بيك لا بيشرب ولا بيلعب بالقمار ؟ ! قه . قه . قه. شو إذا كان خاطب أُختي بدّك إذا شفته سكران قول شفته رايح عالكنيسة ؟ وإذا شفته عن يلعب بالقمار قول شفته عن يصلّي ؟ والله فصل !

ام الياس (بغضب كلي)
أنا قلت لك انّو ناصيف بيك بزمانو لا شرب ولا مسك ورق قمار بإيده . وحاجتك لت وكتّر حكي ، إذا كان شرب لو مصّة عرق ، شو هالمصيبة ؟ كل الشباب بيشربولهم قدح .

خليل لكن يا أمّي ناصيف بيك ما شربش مصّه بس — شرب نصف رطل يمكن .

ام الياس سكّر تمّك وانصرف من وجهي بقا ! قلت لك ناصيف بيك ما بيشربش . وبعدك بتقول لي انّو سكران ؟

خليل بردون ، ماما ، خطيت ومنّك المسامحة .

سكوزمي .

(يحني رأسه . يدخل ناصيف بك من باب الصدر متمايلا . في يده عصا وطربوشه فوق أذنه اليسرى) .

المشهد السادس

الياس – داود – زينة – خليل – أم الياس – ناصيف بك

ناصيف (يبرم عصاه في يده ويرندح)

البوكر قرّح لي قلبي . قلبي قد قرّح لي البوكر . أين خليل ؟ أين هذا المغضوب عليه ؟ ألم أقل لك إن ناصيف بيك لا تعصاه قافية ؟ وجدتّها وجدتّها ! غصباً عنك وغصباً عن سيبويه . لا تصدّق ؟ اسمعوا إذن : البوكر قرّح لي قلبي . قلبي قد قرّح لي البوكر . هل سمعتَ في حياتك ألطف من هذا القول يا الياس ؟ وأنتِ يا امرأة العم المحترمة ، هل سمعت قط شعراً كهذا الشعر ؟ قلبي قد قرّح لي البوكر . أسّ . أس . أس . أس . أعني أربعة أسوس . أسّ . أس . أس . أس . قدّرت الربح بها مسوكر . أربعة أسوس . من لا يخاطر بتلاتين وفي يده أربعة أسوس ؟ لكن

اسمعوا البقيّة . قدّرت الربح بها مسوكر. لكن ماذا يجديك الأس إذا كان الحظ . . . مَن منكم يقدر أن يجد قافية لهذا البيت . من منكم درس العروض ؟

أرِنا فصاحتك يا الياس . أو أنت (مشيراً إلى داود) يا حضرة الأفندي هنا هل درست جنابك العروض؟

داود درسته ونسيته .

ناصيف انت لا نفع منك . لا في العير ولا في النفير . وانت يا الياس أعطني قافية لهذا البيت وأنا أتخلّى لك عن بكوبتي : لكن ماذا يجديك الأس إذا كان الحظ . . . تكلّموا — ما لكم سكوت ؟ آهـَا ! الشعر صعب وطويل سلّمه . فاسمعوا إذاً

(يعيد الأبيات من أولها)

لكن ماذا يجديك الأس إذا كان الحظ . . . هل وَجَد . . . أحد منكم القافية ؟

خليل معوكر !

ناصيف (مبهوتاً . يضرب الطاولة بيده)

لا وحقّ ربّي . لقد سرقتها مني . سرقتها يا ملعون . أنت لص . أنت سرّاق . وإلاّ من أين أتيت بها وأنا صرفت ثلاث ساعات أبحث عنها

حتّى وجدتها ؟ لا . أنت لص . يا خيبة أملي فيك.

خليل (مستغرقاً في الضحك)

قه . قه . قه . لا وحياة رأس البيك . قه.. قه . قه .
قَدَحْتُها من ضميري وشلتها . قه . قه . قه .

ناصيف (بغضب كلي)

لا والله أنت سرّاق وألف سرّاق . أنت أحطّ من سرّاق . أنت تسرق من الشاعر قوافيه . تسرق جواهره . أنت كنت لي في الطريق فسمعتني أردّدها والآن لا تخجل أن تدّعي أنّك وجدتها . ومَن أنت لتعرف شيئاً عن الشعر وقوافيه ؟ أُمّيّ بَربريّ همجيّ لا تعرف الكوع من البوع . ولا تقدر أن تعرب ضرب زيد عَمراً .

داود ألا تقدّر أن قد حصل توارد خواطر بينكما ؟

ناصيف توارد خواطر ؟ بيني وبين هذا الأبله ؟ وأنت من أنت لتحكم في أمور كهذه ؟ هل جنابك نفطويه أم سيبويه أم الخليل بن أحمد ؟ توارد خواطر ؟ والله فصل ! وماذا تعرف حضرتك عن توارد الخواطر ؟ ماذا تعرف عن الشعر ؟ أعرب لنا أبي كوى الحمارَ .

الياس (آخذاً بيد ناصيف بك)

لا تنسَ أن المعلّم داود ضيفي وأنّه في بيتي .
وإذا أهنته فكأنّك أهنتني .

ناصيف إن كان في بيتك أو في بيت ربّنا — من أقامه قاضياً بيننا ؟ أقول إن أخاك سرق القافية منّي — فدعه يدافع عن نفسه إذا كان بريئاً . وما دخلك أو دخل سواك في الأمر ؟

الياس (واضعاً يده على كتف ناصيف بك)
ألا تظن أن الأفضل أن « تعطينا مَدْوَر زنّارك » ؟

ام الياس (تستشيط غضباً)
الياس ! إلزم أدبك وسكّر بوزك ! انت اعطينا مدور زنّارك — انت وصاحبك — مينك انت في هالبيت تخمين ؟
(إلى زينة وقد استخرطت في البكاء)
وانتِ شو ضربتك السخنة على قلبك بعدك قاعدي هون ؟ ليش ما بتنقبري على أوضتك ؟ فزّي بها الدقيقة . وسكّري تمّك — لا عشتِ تبكي إن شاء الله .
(زينة تخرج باكية)
أوْ هُوْ . كل مينْ صار بدّو يمشي براسو بها البيت . (إلى خليل)

انقلع انت من وجهي والكلّ . كلّكم انقلعوا من وجهي .

(خليل يخرج من باب اليسار . داود يأخذ طربوشه ويخرج من باب الصدر قائلا لالياس : « أتأمل أن أراك غداً . » الياس يشيعه إلى الباب ويخرج) .

والله فصل . كل واحد صار بدو يعيش براسو . لا تواخذني يا ناصيف بيك . تفضّل استريح يا عيب الشوم منّك .

السّتار

الفصل الثاني

غرفة المعلّم داود . باب في الصدر وآخر إلى اليمين . عند الحائط إلى اليسار سرير مركّب من ثلاثة صناديق بترول فوقها ألواح خشب مغطّاة بلحاف على طرفه الواحد مخدّة . ومثله عند الحائط إلى اليمين . في منتصف الغرفة طاولة بسيطة عليها دواة وكتب وأوراق مرتبة وبقربها كانون فيه بعض جمرات . أرض الغرفة عارية « مدقوقة عدسة » لكنها نظيفة كلّ النظافة. على الحائط الشرقي رسم تولستوي وتجاهه على الحائط الغربي رسم المسيح . شهيدة جالسة على كرسي بقرب الطاولة وفي يدها مكوك وبكرة خيطان بيضاء . على الطاولة قنديل كاز نمره ٣ . الساعة التاسعة مساء . الفصل شتاء .

المشهد الأول

شهيدة – إلياس

شهيدة (تتثاءب ثم تفرك عينيها)
حُوّ . شوها البرد ! عجب ! ماذا أعاق داود إلى الآن يا ترى ؟ هل حدث له مكدّر لا سمح الله ؟
(سكوت . تسمع طرقة على الباب فتركض بسرعة لتفتحه)
رَجع والحمد لله !
(تفتح الباب وترجع إلى الوراء مذهولة . يدخل الياس وعلى رأسه قبعة من الفرو مغطاة بالثلج . ينفض قبعته ومعطفه خارجاً) .

الياس (نافخاً في يده)
ليلة سعيدة .

شهيدة سعيدة ومباركة . تفضّل .

الياس أين المعلّم داود ؟ أليس في البيت ؟

شهيدة استدعاه بعض جيراننا منذ ساعتين وحتّى الآن لم يرجع . وقد وعدني أن يعود قبل الثامنة . والساعة الآن هي التاسعة . أخاف أن يكون قد ضلّ الطريق في هذه العاصفة . هل لك ما تطلبه منه ؟

الياس أحبّ أن أراه لأمر يتعلّق بي وبه . أتظنّين أنّه

يرجع قريباً ؟

شهيدة كان يجب أن يرجع من زمان . وإذا لم يكن قد حدث له حادث فسيكون هنا بعد قليل . ألا تريد أن تجلس ؟ اعذرني سآتيك بكرسي .

(تهم بالخروج)

الياس لا بأس . سأجلس على السرير إذا أذنتِ لي .

شهيدة خذ حريتك .

الياس (جالساً على السرير)

ألستِ المعلّمة شهيدة أخت المعلّم داود ؟

شهيدة نعم . أنا هي .

الياس عجباً . لم أركِ قبل اليوم هنا . ألعلّك لا تسكنين في هذه المدينة ؟

شهيدة أنا أعلّم في مدرسة ابتدائيّة ، ولا أتمكّن من زيارة أخي إلاّ في عطلة الصيف أو عيد الفصح أو عيد الميلاد . وقد جئت اليوم لأمضي معه عيد الميلاد .

الياس ألا تخافين أن تبقي وحدك في البيت في مثل هذه اللّيلة ؟

شهيدة وممّ ، أو ممّن أخاف ؟

الياس من اللصوص . وما أدراكِ أنّي لستُ لصّاً ؟

شهيدة	وماذا يطلب اللّص هنا ؟ ومن ثمّ فأنا لم أسمع بعد بلصّ خرج من بيت بطرس سماحه .

الياس	هل أنتِ ساحرة أم نبيّة ؟ لنفرض أنّك سمعتِ اسمي من داود . لكن من أين عرفتِ أنّي أنا هو الياس بطرس سماحه بعينه ؟

شهيدة	(ضاحكة بلطف)

لست ساحرة ولا نبيّة . أيصعب عليك أن تعرف كيف اهتديت إليك ولم أرَكَ من قبل ؟ الأمر بسيط . د.ود كتب إليّ عنك مراراً ووصفك لي وصفاً دقيقاً . حتى إنّه أرسل إليّ صورة الوثيقة التي كتبتها تعهداً على نفسك وكل من ذهب مذهبك :

« بتاريخه نحن الموقعين في ذيله قد تعهدنا أن نضع حدّاً لحياتنا قبل بزوغ شمس العاشر من شهر آب » الخ .

(ضاحكة بلطف)

عندما قرأت هذه الوثيقة استلقيت على ظهري من الضحك . لا تؤاخذني – هل في ذلك ما يجرح إحساساتك ؟ ألم تضحك أنت عندما كتبتها ؟

الياس	(بخجل)

وماذا يضحككِ فيها ؟

شهيدة (باسمة)

ربّي ! ماذا يضحكني فيها ؟ يضحكني أن شاباً مثلك عاش مقدار ما عشت ولم يدرك حتّى الآن جمال الحياة . أنا أغبط نفسي على وجودي في هذا العالم وأشكر خالقي من أعماق قلبي . إنّ أمراض الجسد وآلام النفس وأوجاع القلب تمرّ في حياتي كسحابة صيف . الحياة جميلة . والذين لا يرون هذا الجمال يجب أن يُبحث عن السبب في نفوسهم . ما ضرّ الشمس لو شتمها الأعمى ؟

الياس آه لو أدري ما هو هذا الجمال الذي تتكلّمون عنه كلّكم أيّها المتعلّقون بأذيال هذه الدنيا : جمال الحياة ، لذّة البقاء ، غبطة الوجود — هذه كلّها كلمات جميلة رنّانة ، لكنّها فارغة خدّاعة.

شهيدة حبّذا لو كنت فيلسوفة لأحدثك بلغة الفلاسفة .

الياس بل اشكري ربّك لأنّك لست بالفيلسوفة . فما تاه في مفازات الحياة مثل الفلاسفة .

شهيدة تعني أن كثرة التفكير في الحياة وألغازها لا تزيدها إلاّ تعقداً ؟

الياس أعني أن من أخذ الحياة على علاّتها أنْعمُ بالاً

ممّن يحاول أن يأخذها على هواه . ولعلني من المغضوب عليهم . فلا أستطيع أن أتقبّلها على علاّتها.

شهيدة أمّا أنا فأتقبّل علقمها بالشكر طمعاً بشهدها . وأشهى شهدها عندي أن أعمل وأن أقول ما يجلب السرور والراحة لغيري . ذلك هو سروري الأكبر .

الياس هنيئاً لكِ ولأخيك داود . فهو يحاول أن يقنعني بمثل القول الذي تقولين . ويا ليته كان في مستطاعي أن أرى الحياة بعينيك أو بعينيه .

شهيدة (تجفل)

ذكرتني بداود . لقد تأخّر كثيراً وتأخّره يقلقني . (تتنهد) لا تؤاخذني .

الياس ويقلقني كذلك . (سكوت)

شهيدة عجبت لشاب مثلك يفتش عن غاية له من وجوده وشقيقته تُكرَه إكراهاً على الزواج من رجل لا يصلح أن يكون لها خادماً . أفما تطوعتَ لإنقاذ شقيقتك ؟ لقد أخبرني داود عنها .

الياس (يتنهد)

وقد جئت هذه الليلة لأستشير داود بشأنها .

شهيدة تبّاً لهذه العاصفة . أفما لها من نهاية ؟ إن قلقي

على داود يزداد .

(بعد سكوت)

كأنّني أسمع وقع أقدام . (تنصت)

الياس بلى . هنالك حركة خلف الباب .

(شهيدة تنطلق انطلاق السهم نحو الباب وإذ تفتحه ترجع إلى الوراء مذعورة إذ ترى داود عاري الرأس ، مبعثر الشعر ، مغطى بالثلج ، والدم يسيل من صدغه الأيسر وقد جمد بعضه على أذنه وخده وذقنه ، في يده اليمنى منديل ملطخ بالدم وقد ضمه إلى عينه اليمنى)

المشهد الثاني

شهيدة — إلياس — داود

شهيدة (تطرح نفسها عليه مذعورة)

داود . . . داود . . . ويلي . . . ويلي !

(تبكي معانقة أخاها)

الياس ماذا جرى ؟ ماذا أرى ؟

شهيدة (تنفض الثلج عن رأس داود بيديها وتنزع معطفه عنه)

ويلي ! ويلي ! من تعدّى عليك ؟ أرني . أرني جروحك .

(تجذبه إلى القنديل وتفحص جروحه)

ربّي . . . من أين آتيه بطبيب ؟ الياس أفندي
دخيل جريك . دخيل ربّك حكيم . حكيم !
داود . داود ! هل تتألّم كثيراً يا روح أختك؟

(تركض إلى الغرفة المجاورة)

الياس الذنب ذنبي والله يا داود . أنا المخطىء . إلعنّي واشتمني كما تشاء . أنا أستحق . أستحق . أستحق.

داود وما هو ذنبك ؟

الياس جئت الليلة خصّيصاً لأحذرك من هذا الأمر . لكني تأخرت في مجيئي فكان ما كان . يا للهمجيّة! يا للبربريّة !

شهيدة (ترجع وفي يدها لفافة شاش تضمد بها جراح أخيها)
ويحهم . ويحهم ! من ذا الذي أراد قتلك وأنت لا تؤذي أحداً ولا تبتغي الشرّ لأحد ؟ دعني أرَ عينك . هل تضرّرت كثيراً ؟

داود لا بأس . لا بأس يا أختي . المسألة بسيطة . جرحان خفيفان . لا حاجة إلى طبيب . عنايتك تكفيني .

شهيدة هل يضايقك الكلام ؟ أخبرني ماذا جرى . لا تخفِ شيئاً . أخبرني بكلّ شيء بالتفصيل . يا للعار ! يا للشناعة !

داود (يجلس على الفراش ويتكلم بضعف)

(الياس وشهيدة يصغيان بانتباه كلي لقصته)

أرسل سمعان البكر ابنه يستدعيني إليه ليستشيرني في أمر دَينٍ له عند ناصيف العركوش .

الياس ناصيف بيك ؟ وكم مبلغ الدين ؟

داود ١٠،٥٤٥ قرشاً .

الياس ناصيف بيك مديون لسمعان البكر بعشرة آلاف قرش وأمّي لا تزال تحسبُه رجلاً غنيّاً ؟!

داود استحق الصك ولكن « البيك » رفض دفعه أو دفع فائدته أو تجديده قائلاً إن كلمة شرف منه تكفي .

الياس (متهكماً)

شرف ؟ ! أيّ شرف هو شرف هذا الشويعر المخبول ؟

داود وسمعان البكر رجل مسكين أنفق في أميركا نصف عمره حتى جمع هذا المبلغ من المال . هو شيخ شبه مقعد . عنده زوجته وأربعة أولاد عليه أن يقوم بأودهم . وهو يخشى أن يرفع دعواه إلى المحكمة لأنّه — كما قال — « أبو ناصيف بيك رجّال حكومة » فلا يكتفي بأن يسلبه ماله وحقّه . بل

ربّما قلب الحق عليه وزجّه في السجن — وأنت تعرف بساطة هؤلاء النّاس الذين لم يدخلوا محكمة في حياتهم .

الياس صحيح . صحيح . إنّهم يخافون المحاكم خوف الفأر للهرّ .

داود أنا أعرف سمعان البكر جيّداً لأن اثنين من أولاده في صفّي . لذلك التجأ هذا المسكين إليّ . قلت له إنّي لست محامياً إنّما أقدر أن أهديه إلى محامٍ يتّكل عليه لتحصيل دراهمه . وقد نصحت له أن يعيد الطلب على ناصيف بيك مرّة ثانية ، حتّى إذا رفض رفع دعواه إلى المحكمة لأن الأمر لا يحتمل تأجيلاً .

الياس برافو . . . برافو . . . والله خفّفت عني نصف الحملة . تابع . تابع .

داود خرجت من عند سمعان البكر فوجدت العاصفة قد اشتدّت فلم أخف لأنّي أُحبّ العواصف . ما كدت أقطع الجسر حتّى رأيت شخصاً خرج من تحته وناداني « بأرضك ! » وقفت لأسأله من هو وماذا يريد فلم أشعر إلاّ بلطمة على وجهي أطارت الشرر من عينيّ .

شهيدة أما عرفته من صوته ؟

داود لكني لم أقع . ظننت أوّلاً أن ضاربي قد أخطأ غرضه وأنّه كان يقصد سواي لأنّي فحصت أفكاري فلم أذكر لي عدوّاً يحبّ الإيقاع بي على تلك الصورة . صحت بالرجل : أنا داود سلامه . من تطلب ؟ قال : « أنت لا غيرك » .

شهيدة لعنة الله عليه .

داود وانقضّ عليّ بعصا في يده . حينئذ عيل صبري ولم أملك نفسي من الغضب .

(بحرارة)

تلقّيت العصا بهذه اليد وقابلته بهذه فتمدّد للحال على الثلج كالقتيل . انحنيت فوقه لآخذ العصا من يده وإذا بأخرى تسقط على رأسي من خلف . ثمّ أخرى بين كتفيّ .

الياس يا لهم من أوغاد ! كانوا يريدون قتلك .

داود ولا أزال في حيرة إلى الآن من الصوت الأوّل . كأنّه صوت أخيك خليل تماماً حتى إنّي لما سمعته أحببت أن أناديه باسمه . لكن لساني لم يطاوعني . لا أدري كم بقيت هنالك مطروحاً على الثلج إنّما

أعلم أنّي أفقت شاعراً كأن الدم في عضلاتي تجمّد أو كاد . لكني وصلت إلى هنا بدون عناء كبير . أنا الآن مرتاح ، لا تخافي يا شهيدة ، غداً سأنهض معافى تماماً .

الياس (بدهشة وغضب)

خليل بين هؤلاء الزعران ! ! لعنه الله ما أخبثه وإن كان أخي ! أتدري ماذا قال لي هذا الشيطان اليوم ؟ قال لي « الياس ! شوف هادا صاحبك المعلّم داود — أنا بحبّو وبعزّو مثلك وأكثر . شاب آدمي . حبّوب . لكن أحسن قلّه تا يبطّل يلعب بعقل زينة . هادا عريسها طالع دينه منّه ولولاي بدّو يستأجر قوبة زعران تا يلقطوه شي ليله ويطعموه بدن مليح — هات يخلّص . هات ما يخلّص . » هذا ما قاله لي هذا الداهية . وأنا لبساطة قلبي أو عماوته ، صدقته . إنّما جرّبت أن أقنعه أنّك بريء من هذه التهمة . لكنه لم يصدقني .

داود أتظن أن الذين هجموا عليّ الليلة هم ناصيف بيك وزمرته ؟

الياس لا شك في ذلك . ناصيف بيك ربّما لم يشترك في الأمر فعلاً لكن التدبير تدبيره بدون أقل شك .

داود وما ثأره عندي وأنا لا أكاد أعرفه ؟

الياس لله ما أبسطك ! أوَلم تدرِ بعد ما جرى في هذين اليومين ؟ زينة أرجعت إلى ناصيف بيك خاتم الخطبة – لا بل طرحته في وجهه .

داود (بدهشة ممزوجة بفرح)
زينة ؟ !

الياس زينة . نعم زينة . من أين أتتها تلك الجسارة – لا أدري . لكنها – كما فهمت من أمي – تخاصمت معه لأجلك .

داود (بدهشة كلية)
لأجلي ؟ !

الياس نعم لأجلك . ناصيف بيك أخذ مرّة يشتمك أمامها وكانت منفردة معه . فاستشاطت للحال غيظاً وقالت له بجرأة أن لا حقّ له أن يشتم غائباً وعلى الأخص رجلاً غريباً عنه . وإن عندك من الفهم أضعاف أضعاف ما عنده . وعندما توغل في شتمك قالت له : إن خنصره – تعني خنصرك – بيسواه – تعني خطيبها .

داود (كأنه لا يصدق)
أهكذا أجابته ؟

الياس نعم . نعم . فأمَرَها أن تصمت للحال . فسألته بأي سلطان يأمرها بالصمت . فأشار إلى الخاتم على إصبعها وقال إنّه خطيبها وإن له الحق أن يأمرها بألاّ تتكلّم عنك أو عن سواك حتّى بألاّ تفتح فمها على الإطلاق الخ الخ .

شهيدة يا للوقاحة !

الياس فنزعت زينة للحال خاتم الخطبة من إصبعها — وهل تصدّق ؟ — رمته في وجه ناصيف بيك — ويقولون إنّه أصاب أنفه وجرحه — قائلة : « إذا كان هذا ما يعنيه خاتمك فألف سلام عليك وعليه ! » وخرجت من الغرفة . ولذلك نالت من يد أمّي ضرباً مبرحاً .

شهيدة يا حرام !

الياس أمّي ، طبعاً ، لا تزال تعمل جهدها لتسوية الخلاف ليتم الإكليل في الأعياد القادمة كما دبرت ذلك من زمان . ناصيف بيك وأبوه يتظاهران بأنّهما متأثّران من الإهانة لكنهما في الواقع قد نسياها من زمان ويعملان الآن يداً واحدة مع أمي لإجبار زينة على القبول وزينة تقول : « الموت أو الدير ولا ابن العركوش » . وقد جئت الليلة أوّلاً

لأحذّرك من أشراك ناصيف بيك — وقد تأخّرت في ذلك — وثانياً لأستشيرك في واسطة نخلّص بها زينة من يدي أمّي التي لو ألحّت لاستطاعت أن تجبرها على القبول وأن تجبر الخوري كذلك على القيام بصلاة الزيجة . فما رأيك ؟

داود هل من سبيل للاجتماع بزينة ؟

الياس أقدر أن آتي بها إلى هنا . فهل ذلك مناسب ؟

داود في هذه العاصفة ؟

الياس نعم — في هذه العاصفة .

داود ألا خطر عليها ؟

الياس لا خطر عليها إذا كنتُ معها .

داود إذا كان هكذا فاذهب ولا تطل غيابك .

الياس (لابساً قبعته ومعطفه)

انتظرني إذن . سأرجع عن قريب .

(يخرج)

المشهد الثالث

شهيدة – داود

شهيدة هاكها – حكاية حياتنا الشرقية . هي هي . ابنة يزوّجها أبواها ولا يسألان رأيها في الأمر كأن إرادتها لا تقدّم ولا تؤخّر شيئاً على الإطلاق .

داود نعم . هذه هي حكاية حياتنا في هذا الشرق . لكنها يجب أن تتغيّر . وستتغيّر إن شاء الله . ولا بد أن تتغيّر لأن أبناء هذا الجيل قد وُلدوا لعالم غير الذي وُلد له آباؤهم .

شهيدة الأفضل أن لا تتكلّم عن ذلك لئلاّ تتهيّج . كيف جرح رأسك الآن ؟

داود كنت أسمع أن العرق مطهّر للجرح . فهل لك أن تأتيني بقليل من العرق ؟ لا أدري إذا كان حانوت العين لا يزال فاتحاً إلى الآن . هذا أقرب حانوت إلينا . إذا وجدته مقفلاً فاسألي بعض الجيران . ولكن الأحسن أن تنتظري إلى أن تهدأ العاصفة .

شهيدة لا تخف عليّ من العاصفة . اضطجع على السرير ريثما أعود . (تخرج)

داود (يجلس على السرير ساكتاً ورأسه بين يديه . بعد برهة قصيرة يسمع طرقة على الباب) .

الياس ؟ ادخل !

(تتكرر الطرقة فينهض داود نحو الباب ويفتحه . وللحال يرتمي إلى الوراء مذهولا وهاتفاً)

ستّ زينة ؟ !

(زينة تدخل وعليها رداء ثقيل دافىء مغطى بالثلج وقد لفت رأسها بحرام من الحرير الأسود)

المشهد الرابع

داود – زينة

زينة (ناظرة إلى داود) .قُضي الأمر إذن . فلم يعد من حاجة لمجيئي .اعذرني يا معلّم داود ، يجب أن أرجع من حيث أتيت . (تهم بالخروج)

داود ست زينة . ست زينة – ما الخبر؟ حلّفتك بربّك ألاّ تخرجي الآن . لي إليك حاجة . ابقي هنا ولو دقيقة . أكاد لا أصدّق عينيّ . ماذا جاء بكِ إلى هنا في مثل هذه الساعة وهذه العاصفة ؟

زينة جئت لأحذّرك من مكيدة يدبّرها لك بعض الرعاع . وأراني قد تأخّرت . تهت عن الطريق

في هذه العاصفة . بقيت نحو الساعة أبحث عن مقرّك . وقد اهتديت أخيراً . لكن قضي الأمر . فاعذرني ودعني أذهب . أحببت أن أكفّر عن ذنب قديم فاقترفت ذنباً جديداً .

(تهم بالخروج)

داود ألا تريدين أن تجلسي ؟ بالله اجلسي وأخبريني ما هي المكيدة التي أحببت أن تنجّيني منها .

زينة سمعت أخي وابن العركوش يتشاوران في أن يوقعا بك الليلة . وقد قرّرا أن يستأجرا لتلك الغاية بعض الرعاع . لقد اختارا هذه الليلة حتى إذا استغثتَ لا يُسمع صوتك في العاصفة . وإذا سال منك دم يغطيه الثلج المنهمر من السماء . وقد جئت لأنذرك بأن لا تخرج الليلة . لكنني تأخّرت . والذنب ذنبي لا ذنب العاصفة .

داود وكيف تجاسرتِ أن تخرجي في ليلة كهذه ؟ ألم تخشي العاصفة ؟

زينة كلاّ .

داود ألم تخشي أمّك ؟

زينة خرجت وهي في زيارة بعض الجيران .

داود ألم تخشي القيل والقال لو رآكِ أحد ؟

زينة لا يهمني قيل النّاس وقالهم .

داود وكل ذلك لأجلي . . . أي لكي تنذريني من الوقوع في المكيدة ؟

زينة نعم . لكي أنذرك من الوقوع في المكيدة .

داود من أجلي اقتحمتِ العاصفة ، ومن أجلي لم تبالي بكلام النّاس ، ومن أجلي احتملتِ الضرب .

زينة أيّ ضرب ؟

داود ألم تضربك أمّك بسببي ؟

زينة من أين علمت ذلك ؟

داود من الياس .

زينة هل أخبرك بكل شيء؟ وأنتَ من أجل مَن أشبعوك ضرباً وأثخنوك جراحاً ؟

داود لولاكِ ولولا الياس لما عرفت السبب إلى الآن . ضربوني تعدّياً وظلماً . وإذا كان السبب كما يقولون فما أحبّ جراحي إليّ .

زينة ماذا تعني ؟

داود أعني إذا كانوا . . . أعني إذا ضربوني لأنّهم يحسبون أنّي سبب خصامك مع ناصيف بيك فأنا قابل بجراحي بكل سرور .

زينة وإذا كانوا ضربوك لأنّهم . . . لأنّهم حسبوا...

لأنّهم ظنّوا أنّي . . . أنّي أُحبّ . . . أنّك تميل إليّ وأنا أميل إليك ؟

داود ذلك مستحيل .

زينة مستحيل .

(تطرق إلى الأرض)

نعم مستحيل . . . وهم لجهلهم لم يعرفوا أنّه مستحيل . وأنا لجهلي كذلك لم أعرف أنّه مستحيل .

(تنهض)

اعذرني على ما لحق بك من الأوجاع بسببي وأنت بريء منّي . سأجتهد أن أكفّر عن ذنبي . أحب أن أشكرك قبل أن أخرج — ولا أقدّر أنّي سألتقيك بعد — أُحبّ أن أشكرك على أمرٍ ربّما عددته طفيفاً . لقد فتحت عينيّ فأبعدتني عن هاوية ، ولكنك أدنيتني من أخرى أفظع منها وأعمق . وأنا ، مع ذلك ، أشكرك جدّاً . وداعاً .

(تهم بالخروج)

داود (آخذاً بيدها)

ست زينة ، ست زينة . دقيقة بعد . دقيقة .

زينة (متجهة نحوه)

ماذا تطلب منّي بعد ؟

داود ماذا تعنين بالهاوية — الهاوية الثانية التي أدنيتك منها ؟

زينة ما النفع من كل هذه الأسئلة وأنت لا تقدر أن تغيّر ما قد تمّ ؟

داود بل سنغيّر كلّ ما لا بدّ من تغييره .

زينة الهاوية التي خلصتني منها — هي ناصيف العركوش . أتذكر يوم كنت في بيتنا لأوّل مرّة ؟ أتذكر حديثك مع الياس عن الآباء والبنين ؟ كنتُ جالسة أسمع وأعي ولا أظنّك شعرت بوجودي في تلك الغرفة . من ذلك اليوم تفتّحت عيناي قليلاً وزياراتك التالية زادتني احتقاراً لنفسي . فكانت النتيجة أنّي رفضت ابن العركوش . رفضته ولا أدري ماذا أفعل بنفسي الآن . كنت من قبل جاهلة عمياء راضية بالقليل . واليوم لا أزال جاهلة ولا أزال عمياء لكنني لا أرضى بما كنت راضية به من قبل . وما أطلبه الآن لا أقدر أن أظفر به . لذلك أقول إنّي كنت سعيدة بجهلي . وإنّك أبعدتني عن هاوية لتدنيني من أخرى .

داود وما هو الذي تطلبينه الآن ولا تقدرين أن تحصلي عليه ؟

زينة أطلب المستحيل . وما كنت أدرك ذلك حتى هذه الليلة . نعم . أطلب المستحيل . فبالله لا تسألني بعد عن شيء . إذا كنتُ لا أعرف شيئاً على الإطلاق فأنا أعرف على الأقل حقيقة واحدة – وهي أن موتي الآن خير من حياتي . لذلك سأموت . وداعاً .

(تهم بالخروج)

داود (يوقفها آخذاً بيدها)
ست زينة ! أنتِ تموتين ؟ فمن يستحق أن يعيش إذن ؟

زينة ألا تقدر أن تدعوني باسمي فقط ؟ هل يصعب عليك ذلك ؟

داود ست زينة . . . زينة . لماذا تذكرين الموت ؟

زينة ولأجل من أعيش الآن ؟ أنت تقول إن السعادة في أن يعيش الإنسان لأجل سواه – وأنا لأجل مَن أحيا ؟ مَن يهمّه وجودي وبقائي ؟

داود زينة ! عيشي لنفسك تعيشي لأجل الغير . عيشي لأجل أخيك الياس فهو يحبّك .

زينة إنّي أكره نفسي إذا بقيت منفردة كما أنا الآن . وأخي الياس لا يحتاج إليّ . . . فلمن . . .

لمن . . . لمن يعيش من كان مثلي ؟

(تبكي)

داود زينة . زينة — عيشي — عيشي لي . . . عيشي لأجلي . لأجلي أنا ... هل تصفحين عن جسارتي ؟

زينة لأجلك ؟ لماذا تهزأ بي ؟

(تبكي)

ألأنّي ابنة جاهلة ؟ أنا أعرف أنّي حمقاء . أنّي جاهلة . أنّي بسيطة . فلماذا تذكّرني بذلك ؟

داود زينة ! أُقسم لك بمن جمعني بك هذه الليلة عن غير عهد أنّي أحتاجك . أحتاجك . أحتاجك . وحياتي ليست كاملة بدونك . أدركت ذلك من يوم رأيتك . لكنّني حتمت على نفسي السكوت لأني ظننت أن روحك لم تستيقظ بعد . ظننت أنّي لست أهلاً لحبّك . ظننت أن حياتك كاملة بدوني . خفت أن أعرض عليكِ نفسي والعقبات في سبيل اتحادنا كثيرة .

زينة داود ! هل تعني ما تقول ؟ بربّك ؟ ألست تهزأ بي ؟ لا ؟ فإذن .

(تنطرح نحوه ثم ترجع إلى الوراء)

لا . لا . أنت تهزأ .

داود وحياة زينة لا أهزأ — وهل هذا وقت هزء ؟

زينة أنت – أنت – داود الذي كنت أراه في أحلامي ولا أجسر أن أتلفّظ باسمه حتّى أمام نفسي وفي خلوتي . أنت الذي فتحت عينيّ فأبصرت بعض ما عميت عنه قبلاً . أنتَ الذي أنرتَ وجودي بنور جديد . أنت . أنت . . . لا تغربني ؟ أنت لا تزدري بجهلي وبساطتي وضعف عقلي ؟ أنت تحبني ! ؟ وهذا ليس حلماً .

(ترتمي بين ذراعيه)

داود أحبّك يا زينة . أحبّك يا زينة .

(يقبلها) وهذا ليس حلماً بل يقظة .

زينة أتؤمن بالله ؟

داود أؤمن ؟

زينة لا تضحك . أترى هذا الخنجور ؟ (تخرج خنجوراً من جيبها) أتدري ما فيه ؟ سمّ ناقع . كرهت نفسي وحياتي في المدّة الأخيرة حتّى عزمت أن أنتحر . كرهت ابن العركوش كرهاً لا كره فوقه . وأحببتك حبّاً لا أدري إذا عرف مثله أحدٌ قبلي . لكنني لم أجسر أن أعترف به حتّى أمام نفسي . نظرت إلى الهوّة بيني وبينك – لا هوّة المال والنسب – بل هوّة الإدراك والمعرفة.

فوجدت تقريبنا من المستحيل . ولم يبقَ لي في الدنيا من غاية سوى الاقتراب منك . وإذ أقنعت نفسي أن لا أمل بتحقيق هذه الغاية حصلت على هذا الخنجور وخرجت هذه الليلة وبقصدي أن لا أرجع إلى العالم أبداً . لا أدري ماذا أوقف يدي عن تجرّع ما في هذا الخنجور . حاولت ذلك مراراً . وكلّ مرّة كان شخصك يقف أمامي فتجمد يدي . أخيراً صلّيت لربّي من أعماق قلبي وسألته أن يهبني جرأة وقوّة لآتي هذه الليلة وأراك قبل أن أموت ، وأسمع منك هاتين الكلمتين : « أحبّك يا زينة » . اتخذت أمر المكيدة عذراً لمجيئي في مثل هذه الساعة . وقد سمعت ما اشتهيت فأشكر الله . قل مرّة بعد — أحبّك يا زينة !

داود أحبّك يا زينة ! أحبّك يا زينة ! أحبّك يا زينة ! ولو كنت أخشى أن يكون حبّي شقاء لكِ .

زينة حبّك شقاء لي ؟ ! (تضحك)

داود (مشيراً إلى أثاث غرفته الحقيرة)

انظري . تأمّلي . هل ترضين بالفقر بعد الغنى ؟

زينة هسّ . هس . هس . لا تفه بكلمة واحدة بعد عن هذا . ما أحسن الفقر . ما ألذّ البرد . ما أشجى

صفير العاصفة إذا كان هنا (تشير إلى قلبها) ما يدفىء وما يغذّي . ما عليك الآن إلاّ أن تنجّيني من أمّي . عجباً . لماذا أخافها ؟ عقلي يدلّني وقلبي يدفعني إلى أن أكشف لها كل ما في قلبي ، وأن لا أهتمّ لغضبها . إلاّ أنّني أخافها . أرضعتني خوفها مع اللبن .

داود سنفعل ما في وسعنا بمساعدة الياس لنتغلّب على أمّك . هل من خوف عليكِ إذا عدت الليلة إلى البيت ؟

زينة قلت لك إنّي أخاف أمّي . لكن لتفعل أمّي وكل الأقدار ما تشاء . ألم تقل لي « أُحبّك يا زينة » ؟

(تعانقه)

هل تعود فتندم على ما قلته لي الليلة ؟ هل تعود فتنفر منّي لجهلي وبساطتي ؟ لا ؟ ما أحسن الحياة معك يا داود !

(شهيدة تدخل فجأة)

المشهد الخامس

داود – زينة – شهيدة

شهيدة (نافضة عن ثيابها الثلج وناظرة بدهشة إلى زينة)
هاك العرق فكيف جراحك الآن ؟

داود دعي العرق لمن يشرب العرق . فقد نسيت جراحي.
لقد بعث الله إليّ بدواء أنجع من العرق . وهذا هو
(يشير إلى زينة)
هذه هي الست زينة – أو زينة – أخت الياس ،
يا شهيدة . فاقبليها كأخت .
(إلى زينة) وهذه أختي يا زينة – فاقبليها كأخت
لك كذلك .

شهيدة (تهجم لمعانقتها)
ليكن اسمك مهما كان . يكفيني أن داود
يحبّ هذا الاسم وصاحبتَه . لذاك سأحبّك أنا
كذلك . اخلعي . اخلعي شالك ومعطفك .
(تنزع الشال عن رأسها)
اجلسي . فسأذهب وأزيد النّار لتدفأ أصابعك
النحيفة . في غرفتنا بردٌ أكثر ممّا في الخارج .

ألم تشعري بذلك يا زينة ؟ اجلسي يا حبيبتي .
أحب أن أتعرّف إليك جيّداً .
(تخرج)

زينة أختك مجبولة باللطف مثلك . لماذا لم تقل لي إنّ عندك أختاً ؟

داود لم يتسنّ لي ذلك قبل اليوم .

شهيدة (ترجع وبين يديها الكانون وقد زادته فحماً)
أين الياس ؟ هل رجع ثمّ عاد فخرج ؟

زينة أيّ الياس ؟ أخي ؟

شهيدة الياس أخوك . إي . ألم تأتي إلى هنا برفقته ؟

داود لا . زينة أتت وحدها . وقد نسيتُ أن أُخبرها أن الياس كان عندنا الليلة . وأنّنا أرسلناه لاستدعائها لنتخابر معاً في أمر نجاتها من ابن العركوش .

زينة أرسلتَ الياس لاستدعائي لتتخابروا في أمري ؟ أتعني أنّك كنت تهتمّ بي قبل أن عرفت حبّي لك؟ ما أرقّ قلبك يا داود !

داود بدأت أهتمّ بك من يوم رأيتك لأوّل مرّة .
(يسمع وقع أقدام وراء الباب)
هذا هو الياس .
(يذهب نحو الباب)

المشهد السادس

داود – زينة – شهيدة – الياس

الياس (يفتح الباب)

ها ! أنتِ هنا وأنا أفتش عنكِ ؟ أتدرين أن أمّي وخليلاً قد خرجا يبحثان عنكِ كذلك ؟ الخادمة في البيت قالت لي إنّكِ هربتِ وإن أمّي كانت « تلاطش خيالها » . رَجَعْتُ إلى البيتِ ولم تجدكِ فاستدعت خليلاً للحال ليذهب معها للبحثِ عنكِ . خرجتْ في هذه العاصفة وهي تقول إنّها إذا وجدتك « بدّها تقيم القيامة » .

داود اجلس . اجلس وتدفّأ الآن . هاتي كرسيّاً يا شهيدة . سنقف على التفاصيل فيما بعد .

الياس فيما بعد ؟ أُحبّ الآن أن أعرف ما جرى .

داود زينة سترجع معك إلى البيت . فهل تكفل أن أمّك لا تصبّ سخطها عليها ؟

الياس ماذا تعني ؟

داود أعني – هل تكفل أن أمّك لا تضربها ؟

الياس خذ لك ألف كفالة كهذه الكفالة .

داود إذن سألقي اتّكالي عليك ؟

الياس ستلقي اتّكالك عليّ ؟ وهل تظن أنّك تهتمّ بها أكثر منّي — وأنا أخوها ؟

داود ربّما كنت أهتمّ بها أكثر منك . ما يدريك ؟ إذا لحق بها أذًى فاعلم أنّه سيلحق بي أضعافه .

الياس والله فصل ! هل تظن أنّك تحبّها أكثر منّي ؟

داود نعم — أحبّها أكثر من نفسي يا الياس .

الياس ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ هل أنا في حلم ؟ وهل ذلك صحيح يا زينة ؟

زينة صحيح يا الياس .

الياس هل اتّفقتما أن تلعبا دوراً على ظهري ؟ والله إذا صحّ ذلك فقد تمّ ما كنت أشتهيه من زمان . داود !

(آخذاً بيده)

أنا لا أعرف في العالم فتاة تليق أن تكون رفيقة لك كزينة . وأنتِ يا زينة . . .

(آخذاً بيدها)

أنا لم أرَ بعد رجلاً جديراً بقلبك السليم وروحك الطاهرة كهذا الرجل . فليبارككما الله .

داود (باسماً)

قد باركتنا السماء من قبلك . وإذا كان بينك وبين الله صداقة جديدة فاطلب إليه أن يفتح عينيْ والدتك لتبارك رباطنا وترتد عن ابن العركوش .

الياس أمّي – أمّي لا يفتح عينيها سوى القبر . وإذا كنت تنتظر رضاها فالأحسن أن تبدأ حياتك من جديد .

(يسمع طرق على الباب . يذهب الياس ويفتحه فيدخل خليل وام الياس)

المشهد السابع

داود – زينة – شهيدة – الياس – أم الياس – خليل

ام الياس (متجهة نحو زينة)

آه يا مغضوبة ، يا عاهرة ، يا ناقصة ، يا اللّي بلا شرف ولا دين ! أنتِ هون وأنا غلّيت المراسيل وأنا دوّر عليكِ ، آ ؟ ايش شغلتِك هون يا ملعونة يا مقصوفة العمر؟ ايش لكِ شغل هون ؟ تفه عليكِ ولعنة الله وغضبه . بدّك تجرّسيني بين النّاس ؟ بدّك تنزعي اسمي واسم بيت سماحه – والله

لانزع لحمك عن عضمك يا خاينة ، يا اللّي بلا شرف وبلا ناموس ، شو طلعتك من البيت وحدك بليلة متل ها الليلة ؟ شو شغلك في بيوت النّاس ؟ بعدك زغيره تا تقاومي امّك وتكسري كلمتها . لكسّر العصا عا ضلاعك يا منحوسة. إن خلّيتك هيك الله لا يخلّيني . إن خلّيتك هيك ما بكون من ضهر امّي وبيّي ولا بكون بنت العرموني . صرتِ عن تطلعي بفنون فنون ، آ ! صرتِ عن تمشي عا مدى راسك . الله لا يعيّشك تمشي . الله يلعنك بكلّ كتاب مقري ولو كانت اللعنة على الحجر ما بتجوز . انصرفي عا البيت قوام — هلّق — بها الدقيقة . انهزّي . تحرّكي — لا يعيّشك تتحرّكي إن شاء الله .

(زينة تبقى مكانها . ام الياس تقترب منها بغضب وتأخذها من شعرها)

قلت لكِ انصرفي .

(تحاول أن تجرها)

داود (رافعاً يد ام الياس عن زينة ودافعاً إياها بلطف إلى الوراء)

ام الياس . ام الياس . لا تنسي أنّ زينة في بيتي الآن . وأنّكِ إذا كرّرتِ بعد لعناتك عليها أضطر أن أسألك أن تخرجي من هنا .

ام الياس وحضرتك مينك ؟ أيْشك من النّاس ؟ شو دخّل ذنبتك بيني وبين بنتي ؟ أنا حرّة ببنتي . أنتِ شو بيعنيك منها ؟

داود يعنيني منها أكثر ما بيعنيكِ .

ام الياس أنت ؟ أنت ؟ أنت بيعنيك منها أكثر ما بيعنيني؟ أنت – شقفة قلعوط ما حدا بيعرف جلدة راس بيّك منين . شقفة بسترند ؟ زينة ! سمعتِ لحدّ وين وصّلتني أمورك يا رديّة ؟ ريتك توصالي عا جهنّم تأتنيّح منّك بفرد مرّه .

(تهجم نحوها لتضربها . داود يأخذها بلطف نحو الباب)

داود قلت لكِ إنّي أضطرّ أن أُخرجك من هنا . فاعملي معروفاً واتركي بيتي .

ام الياس يقلع لك ولبيتك . أنا متشردقة فيك وببيتك . بدّي بنتي . شيل إيدك عنّي بها الدقيقة يمّا بيني وبينك المحكمة .

(خليل يهجم على داود قاصداً ضربه)

الياس (منقضاً على خليل)

خليل ! خليل ! قف مكانك .

(يدفع خليلا إلى الوراء)

زينة (تصرخ مذعورة)

داود . . . أمّي . . . خليل . . . الياس .

(تهبط على الكرسي وتضع رأسها على الطاولة وتبكي)

ام الياس زينة . . . زينة . . . لحدّ وين بعد بدّك توصّليني ؟

(تقع على الأرض مغشياً عليها . شهيدة والياس وداود وخليل وزينة – كلهم يسرعون لمونتها . داود يأتي بماء ويرش على وجهها فتفيق بعد قليل)

داود (بلطف)

اعذريني يا امّ الياس .

ام الياس (بصوت ضعيف غضوب)

ابعد عنّي ! ابعد عنّي ! أنت أصل السبب . أنت كل البلا منّك . بنتي كانت متل الخاتم بالخنصر قبل ما جيت أنت عا بيتنا – ريتها ما كانت هالك الساعه .

(إلى زينة) وهلّق بتمشي عالبيت يمّا لأ ؟

داود (إلى زينة)

أتريدين أن تذهبي يا زينة ؟

(زينة تنهض ساكتة وتتجه نحو الباب . ام الياس وخليل يتبعانها)

الياس لا تخف يا داود .

داود اذكر وعدك يا الياس . كل اتكالي عليك .

الستار

الفصل الثالث

غرفة في بيت موسى بك العركوش . فيها كراس قديمة بعضها من القش الممزّق . إلى الحائط الأيسر ديوان قديم عليه وسائد قذرة . في الزاوية إلى الشمال من الديوان مسامير في الحائط لتعليق الثياب ، عليها ملابس وعصي . أمام الديوان طاولة صغيرة مستديرة مغطاة بالرخام الملطخ بالحبر وغير ذلك ، عليها قنديل بترول ، وعلى الأرض سجادة قديمة فيها خروق ، تغطي قسماً من أرض الغرفة . في وسط الحائط الأيمن باب . وعند أسفل حائط الصدر فراشان مطويان بدون ترتيب. وعند طرف الغرفة الأمامي كانون فيه نار تكاد تنطفىء ، حوله « طرّاجات » قديمة مختلفة الألوان فوقها وسائد قديمة غلفها ممزّقة في بعض الأماكن . الفصل شتاء .

المشهد الأول

ناصيف

ناصيف (يتخطر ذهاباً وإياباً ويردد مشيراً بيديه تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار)

علقتْ بجمرة وجهكِ الوهّاجِ
كلُّ القلوب فأين أين علاجي ؟

غيري يُداجي أو يُحابي إنّما
قلبي ، ورأسِ أبيك ، ليس يداجي

(يصفق إعجاباً ويعيد البيت بصوت أعلى من السابق)

مِن شقّ ثغرك أستقي وعلامَ لا ؟
وبنورِ عينكِ يَستضيء سراجي

(يصفق . يدخل موسى بك وفي يده نارجيلة وعلى رأسه « عرقية » بيضاء . يجلس بقرب الكانون متكئاً على منضدة ثم يأخذ جمراً من النار لنارجيلته)

المشهد الثاني

ناصيف بك – موسى بك

موسى ما لك ؟ هل فقدت آخر درهم من عقلك ؟ لماذا هذا التصفيق ؟

ناصيف آ ! ما لي وما لك . أنت لا تفهم شيئاً في هذه الأمور . هل سمعت في حياتك مطلع قصيدة أبدع من هذا المطلع ؟ (يتلو عليه الأبيات)
قل لي هل سمعتَ في حياتك أبدع من هذا البيت ؟ :
من شقّ ثغركِ أستقي وعلامَ لا ؟
وبنورِ عينكِ يَستضيء سراجي

موسى أنت وشعرك ستقودانني إلى المقبرة قبل الأوان . هل هذا وقت نظم قصائد ؟

ناصيف وقت نظم قصائد ؟ والله فصل ! وما نفع الكلام معك إذا كنت لا تفهم من هذه الأمور شيئاً ؟ أنت لا تعرف سوى كتابة الصكوك وتسجيلها . وتريدني أن أكون مثلك . ولا تدري أن هذا العصر هو عصر النور ، عصر الشعر ، عصر التمدّن . قد

أخبرتك أنّي مدعو غداً إلى حفلة تنصيب القائمقام. فهل تريدني أن أذهب إلى هناك وأجلس صامتاً مكتوف اليدين، والنّاس حواليّ يتلون القصيدة بعد القصيدة والخطاب إثر الخطاب؟ أهكذا تشاؤني أن أكون؟ عندك ابن شهرته طبّقت الآفاق وأنت لا تعرف له قيمة ولا تقدّر مقامه في الهيئة الاجتماعيّة. أنتَ وُلدتَ لِعصر وأنا لعصر — فكيف تأمل أن أكون مثلك؟

موسى ملأت أذنيّ ومزّقت قلبي بمثل هذا الكلام الفارغ. أنا أسعى جهدي لأجعلك إنساناً بين النّاس وأنت تعمل بكلّ مقدرتك لتسوّد اسمي في العالم وتقصّر أيّامي في هذه الدنيا — وقد قصفت نصف عمري. دبّرت لك عروساً — أحسن عروس في المدينة كلّها. عندها مال. عندها أرزاق. بنت أكابر، جميلة، عاقلة. وأنت ماذا فعلت؟ كنت تملأ رأسك عرقاً وتذهب إليها تكلّمها بدعارة وجهل. تلعب بالقمار مع أخيها، وأخوها يخبرها بكل شيء؛ فكانت النتيجة أن ردّت لك خاتم الخطبة وتعلّقت بسواك. وأنت لا تخجل بعد ذلك أن تظهر بين النّاس وتصنّف القصائد! (بحرقة) ابن موسى

بيك العركوش رفضته عروسه . يا للعار ! وابن موسى العركوش ماذا يعمل ؟ ينظم أشعاراً .
يا عارك يا شيبتي !

ناصيف قل ذلك لغيري — فربّما صدّقك . أتريد أن تؤكّد لي أنّه قد صعب عليك كسر شرفك في ترجيع الخاتم ؟ صعب عليك أن تخسر مال ابنة سماحه وأرزاقها . هذا هو الصحيح .

موسى أتظن أنّي أريد مالها لذاتي ؟ إنّ أيامي معدودة . أمّا أنت فأمامك حياة طويلة بعد . فبماذا تعيش ؟ إذا فلتت صيدة كهذه من يدك فمن أين تأتي بالمال لتأكل وتشرب وتكتسي ؟ من أين تفي ما عليك من الدين ؟ الكرم بعناه . والتوت بعناه . والحقل بعناه . والفرس بعناها . وهذا البيت مرهون وسيستحق الرهن قريباً . فمن أين تأتي بالدراهم لتعيش بعد موتي ؟ أتقتات بالروح القدس ؟ أم تخيط لك ثياباً من قصائدك ؟ أجبني . ماذا تفعل ؟

ناصيف لو لم تبذّر أموال أمّي وأرزاقها لما كنتُ في حاجة إلى الاهتمام بماذا آكل وبماذا ألبس .

موسى أرزاق أمّك — ومَن بذّرها ؟ مَن بذّرها على السكر والقمار والنساء غير جنابك ؟

ناصيف اي والله صح قول المثل : قامت القِدر تعيّر المرغفة بشحارها . (بحدة) أتعيّرني بالقمار وأنت شيخ القمرجية ؟ وبالسكر وقد شربت في حياتك بحراً من النبيذ والعرق ؟ وتعيّرني أن لا حرفة في يدي – وما هي حرفتك ؟ قل لي بحقّك ماذا عملت في هذه الخمس والسبعين سنة التي عشتها على الأرض ؟ أمضيت عمرك كاتب ضبطٍ في محكمة القضاء . وأنت مع ذلك تهزأ بحرفتي – وحرفتي أشرف ما احترف رجل في العالم . ستموت وتُدفن ويخمد ذكرك إلى الأبد . أمّا أنا فسأحيا إلى الأبد في كلّ بيت من أبيات شعري .

موسى يا خيبة آمالي ! يا ضياع أتعابي ! ربّيتك يا ناصيف حتى هذه السن لتشتمني ؟ إنّ الله لعن حاماً لأنّه رأى عورة أبيه . وسيلعنك الله لأنّك تسخر بشيخوخة أبيك . لو كنتَ رجلاً ذا مركز في العالم ، ذا نفوذ ، ذا كلمة ، ذا اعتبار ، لو أنّك كسبت فلساً واحداً في حياتك بكدّ يمينك لما صعب عليّ هزؤك . لكنّك عشت وأنت أنشف من شوكة . لا رائحة فتُشَم ولا ثمر فتؤكل .

ناصيف أيّها الطبيب طبّب نفسك .

موسى تْفُهْ عليك وعلى الساعة التي وُلِدت فيها . لقد كانت ساعة نحس . ويلك ! لمن تظنني تعبت واجتهدت لأحصل لك على ابنة بطرس سماحه ؟ لذاتي ؟ لقد عشت حياتي – سواء أعشت ملاكاً أم شيطاناً . أمّا أنت فعلى من أتركك بعد موتي ؟ أتظنّني لا أعلم أن « عليك الدين جرب كلبين »؟ فبماذا توفي ديونك ؟ ابن البكر له عندك ١٠٠ ليرة . (بتمهل) مائة ليرة – وقد استحقّ دينه . أتريد أن يضعك في السجن ؟

ناصيف في السجن ؟

موسى نعم في السجن . في السجن . هذا ما سيحلّ بك إذا لم تتدارك الأمر وتترك قصائدك جانباً وتفعل بما أقوله لك . لا خلاص لك إلاّ في ابنة سماحه . اذكر كلامي هذا وضعه نصب عينيك . أليس حراماً أن يحظى بأموالها وأرزاقها نوري فقير مثل داود سلامه ؟ ألا تخجل أن تعترف أمامي أن صعلوكاً مثله تمكّن أن يمتلك قلب عروسك ويميله عنك وهو نغل وليس من يعرف أصله من فصله ، وأنت شاب من خيرة الشبان ومن بيت عريق بالحسب والنسب ؟ أنت ابن العركوش .

أنت بك وابن بك . وهو . من هو ؟

ناصيف وماذا تريدني أن أعمل ؟ هل أستطيع أن أحملها على حبّي بالقوّة ؟

موسى بل اشكر ربّك يا مجنون لأنّها لا تحبّك ولأن أمّها تحبّك . أمّها تحبّك وهذا يكفي .

ناصيف وماذا ينفعني حبّ أمّها ؟

موسى اسمع . اسمع ! أنا أبوك وشَعري قد شاب . وأين شاب هذا الشعر ؟ لعلّك تعرف مستفعلنْ فاعلنْ أحسن منّي . لكنّك في أمور الحياة لا تزال طفلاً . أنتم — أبناء هذا الجيل — تتعلّمون في المدرسة « ضرب زيد عَمراً » فتظنّون أنكم أصبحتم فلاسفة وأن آباءكم كالجرّة المحشّشة ، لا يصلحون لسوى الكسر .

ناصيف (يضحك) أعجبني تشبيهك .

موسى اسمع . اسمع لأبيك ولو كنت تعدّ نفسك أفهم منه . قلت لك اضحك في قلبك لأن ام الياس تحبّك وتشدّ أزرك . وام الياس امرأة جبّارة لا تخضع لإرادة أحد سوى إرادتها . إذا قالت كلمتها لا ترجع عنها . إنّها لا تزال تجهل أحوالنا الماليّة . وذلك من حسن حظّك . ولو عرفت أنّك مديون

لهذا وذاك ، وأن بيتنا مرهون فلربّما غيّرت أفكارها من نحوك . لكنّها لا تعرف . فاضحك في قلبك . لقد أظهرتُ لها أنّي متأثّر جدّاً من فعل ابنتها في إرجاع خاتم الخطبة لك . وقد تطرّفت معها حتّى إنّي قلت لها إنّك ربّما لم تعد ترضى بزينة حتّى ولو عادت وقبلت منك الخاتم . فالآن إذا رأيتها تَتَمَرْدَ قليلاً ، وذلك سيزيدها تعلّقاً بك . هل تفهم ما أعني ؟

ناصيف أظنّني أفهم .

موسى عندك مساعد آخر — خليل . هذا عفريت كبير . اجعله يدك اليمنى . حينئذٍ دع زينة تعشق من شاءت — داود سلامه أو داود قرد ، فهي لا تقدر أن تخلص من بين أيدي أمّها وأخيها خليل . أمّا أخوها الثاني — الياس — فهذا «آلاف لا شيءْنْ عليها» . هذا لا يهمّه لو خربت الدنيا كلّها أو عمرت ، ولو أخذ أخته القرد الأسود .

ناصيف أنت مخطىء .

موسى اسمع لي . اسمع لي حتّى أنهي ما عندي . وهذا داود سلامه أو داود حرامي — إذا بقيت زينة متعلّقة به فهناك طريقة للتخلّص منه .

ناصيف قد جرّبنا تلك الطريقة ولم تنفع . ضربناه وظننا أنّا تركناه على الثلج ميتاً . لكنه برىء من جراحه فهو أصحّ ممّا كان .

موسى طريقتكم لا تنفع لأن فيها خطراً . والخطر أن تقف الحكومة على الأمر فتكون النتيجة خلاف ما تشتهي . لكن اسمع لأخبرك عن طريقتي الآن : يقولون إن عنده أختاً . أليس كذلك ؟

ناصيف عنده أخت . وماذا تنفعنا أخته ؟

موسى اصبر ولا تكن بلجوجاً . وأخته تسكن معه . أليس كذلك ؟

ناصيف تسكن معه عندما تجيء في عطلة المدرسة .

موسى هذا لا يهمّ . والمهمّ أنّها تسكن معه الآن في غرفة واحدة . أفهمت ما أرمي إليه ؟

ناصيف ما فهمت ولا أريد أن أفهم .

موسى ومن أين لك الفهم وأنت مشغول بفاعلن ومستفعلن؟

ناصيف وسأبقى مشغولاً بها حتى نهاية عمري .

موسى إذن فاستعدّ للسجن أو للموت جوعاً .

ناصيف (كمن يدرك فجأة أمراً فاته من قبل) .

فهمت . فهمت .

موسى الحمد لله . (يطرق الباب)

انظر مَن الطارق .

(ناصيف يفتح الباب فتدخل أم الياس . موسى يهشّ لاستقبالها)

المشهد الثالث

ناصيف – موسى – أم الياس

موسى أهلاً وسهلاً بمراة خيي ام الياس . كيف سَرّقتك الدرب صوبنا اليوم ؟

ام الياس (واضعة يدها على كتفه)

تفضّل استريح . تفضّل استريح يا موسى بيك . يا عيب الشوم .

موسى الله لا يعيبك . كرمال قيمتك . تفضّلي . تفضّلي استريحي . هلّق كنّا بسيرتك .

(أم الياس تجلس حول الخارون)

عن قول لناصيف – مسكينة ام الياس . كيف كانوا كلّ النّاس حاسدينها عا ولادها وكيف عادوا ولادها نزعوا اسمهم واسم بيّهم . عن قول له ام الياس ما بتستاهل إلاّ كلّ مليح عا كبر عقلها ، وطيبة قلبها ، وقداستها . وليش الله عن يجازيها هيك ؟

ام الياس (بحرقة)

يتمجّد اسمك يا ربّي . ايش طالع بإيدي . عملت كل جهدي تا ربيتهم أوادم . (متنهدة) بعد بيصير للدني حال .

موسى أو — الحق معك . بعد بيصير للدني حال . الياس قولي ايش بدّك فيه . خلّيه وحده . الياس عقلاته عـقّـدّهن

ام الياس (بحسرة)

الياس قطعت كل الأمل منه . كنت قول طالع لبيّه . كنت قول بدّو يطلع رجّال . لكن يا ضيعان التعب . يا ضيعان العلم . شايفتلك كتّرة العلم عملته هيك . بيطلع لي بفنون فنون — ساعه هالدني مش سايعته . ساعه ما في لا الله ولا شيطان ولا جنّه ولا جهنّم . ساعه كل العالم خوتان . ساعه بيقول إنّو بدّو يشنق حاله يمّا يقوّص حاله . ساعه بيقول إنّو بدّو يروح يفلح ويزرع . أنا بعرف ! فنون فنون . شيّب لي راسي يا موسى بيك . مبارح طالعلي بفنّ جديد . جايي بيقلّي : يا امّي بدّي اتجوّز . قلت : نشكرك يا ربّي ونحمدك . الصبي ركّز عقله . يا ابني مين بدّك

تاخذ ؟ قال : شهيدة سلامه ، أُخت المعلّم داود سلامه . وايش دينها يا ابني ؟ بسترند . كيفلك ؟ ابن بطرس سماحه يروح ياخذ شقفة معلّمه ، وبسترند وِلْكل ؟ لا. لا . لا . قلبي ما عاد فيه يحتمل يا موسى بيك. قلبي دمدم وراسي داخ . لمّن قال لي هيك ، هاك الساعه ما عدت قشعت — يقلع لك وللبسترند ولكلّ من صلّب بصليبهم . بدّك تاخذ بسترند روح انقلع من بيتي . روح عمول بسترند . عمول نوري . عمول فرمسوني . لكن لا بقى تخلّيني شوف وجهك . ضيعان الخبز اللّي فتيته عليك . ضيعان المصاري اللّي بعزقتها عا علمك . روح من وجهي . روح من وجهي . روح من وجهي ! ما عدت قشعت ولا عدت أعرف ايش عن قول . حمل حاله وفات عا أوضته وسكّر الباب . ايش بدّك حظ بعد أنحس من ها الحظ يا موسى بيك ؟ شو عملت بربّنا تخمين يا هل ترى تهو عن يباديني هالمبادا ؟ ابن بطرس سماحه ياخذ بسترنديه ؟ !

موسى قولي الياس عقلاتو كانوا على جنب من زمان . لكن زينة . زينة شو أخذها وجاب غيرها ؟ ما

بتحبّيش تعملي ليك شحطه ؟

(يقدم لها النربيج) .

ام الياس يا عيب الشوم ، خلّي بإيدك .

موسى (بإلحاح) تفضّلي . تفضّلي .

ام الياس (تأخذ النربيج وتبدأ بالتدخين)

هادا ، هادا هو اللّي حارق لي قلبي يا موسى بيك . لو بعرف بس ها اللّعين هالابن الستّين برطوشه كيف دخل بعقلها وقلّبها خلفاني قدماني . ترى منين الله بلانا فيه ؟ بتعلمك كانت متل الخاتم بالخنصر . بعلمك كانت — امّي . امّي . ايش ما قالت امّها — على راسها . بعلبك كانت متل غنمة القرعة ما تردّش بوجهي كلمه . اليوم صارت بتردلي الكلمه كلمتين . بدّك أكتر ما جبت العصا ونزلت فيها خبيط ؟ بزماني ما مدّيت إيدي ليها . لكن راسها وألف عصا . الداي داي والطبيب الله .

موسى بعد بتعقل . البنت بعدها جاهله .

ام الياس جاهله ؟ لا يعيّشها تجهل إن شاء الله . صار عمرها عشرين سنة وبعدها جاهله ؟ مبارح بتقول لي : « يا باخد داود يمّا بروح عالدير . وإذا ما

خلّيتينيش روح عالدير بسمّم لحالي » . كيفك ؟ بتقول لي : انتِ بدّك تهلكيني . انتِ بدّك تجوزيني غصباً عنّي . سامع ؟ قال أنا بدّي أهلكها . ريتها هالكه ! قال بدّي جوّزها غصباً عنها . والبنت لحدّ وين بدها تضلّ ناطره تخمين ؟ شو قدّام البنت غير الجازه ؟ البنت بس تقطع التمانتعش وتضلّ بالبيت بيصير لسانات النّاس بيظهرها هـَه .

(تضع شبراً فوق شبر أمام فمها)

بلا قافيه . البنت شو لها غير السّتره ؟ هلّق ما عدت فيّي هدّي النّاس عنّي . حكّت العالم علينا . ريتها حكايه . بتصدّق ما عاد ليش عين اظهر بين النّاس ، وخاجلي نفسي منّك ومن ناصيف بيك بالأخص . بيحق لكم تزعلوا عليّ . بيحق لكم تعتبوا .

موسى أنا بتعرفي يا ام الياس — كنت متل الإخوه أنا والمرحوم بطرس بيك يمّا لا ؟

ام الياس وأعزّ من الإخوه .

موسى كنت أحلف بحياته يمّا لا ؟

ام الياس وهو كان يحلف بحياتك .

موسى ورحمته في تربته يا ام الياس معزّتك عندي ومعزّته

سوا ، ولكن بحكي لك الصحيح — لمّن إجا
ناصيف وخبّرني عن الدق اللّي لعبته زينة معه —
انضربت . انضربت عا وجهي . صعبت معي —
ليش الحكي . زينة اللّي كنت عدّها متل بنت
خيّي — تردّ خاتم الخطبة لابني ! أهيدي صارت
بعد ؟ بعمرك وزمانك سمعتِ أن بنت عاقله ،
بتفهم ، بتحدّ الأشيا بترفض عريس متل ناصيف ؟
أنا من قلّة البنات رحت خطبت زينة لابني ؟
انتِ بتعرفي وكل الناس بيعرفوا أن بنت القائمقام
بتقتل حالها عا ابني . لكن أنا حدّيتها بعقلي —
خيّي بطرس مات وخلّف هالبنت . صار عمرها
عشرين سنة والبنت ، عا رايتك ، بدّها مين
يسترها . حدّيتها بعقلي لقيت أنّه أحسن من ناصيف
مش رايح بيصير لها . تطلّعنا فتّشنا انّها بالآخر
تكبّرت علينا وراحت تعلّقت بهونك نوري الله
بيعرف جلدة راس بيّه منين . أنا بحكي لك
الصحيح — صعبت معي . لكن عدت لُكْتها
بفكري : أنا رجال ختيار — بعيش لي بعد سنتين
وإن كتّرت خمسة . ما عنديش غير هالصبي .
بدّي جوزه قبل ما موت . قلت إذا كان هو

بيحبّ أنّه ينسى ها المسألة أنا والكل بنساها .
تاري لك ناصيف صعباني عنده أكتر منّي .

ام الياس (إلى ناصيف)
يا عيب الشوم يا ناصيف بيك . أنت بتقيّد عا بنت ؟ ايش هي وايش عقلاتها ؟

موسى متل ما قلت لك يا ام الياس . أنا واياكِ — أيّامنا ولّت — نحنا لا بقينا نتجوّز ولا بقينا نطلّق . بنّا صالح ولادنا بس . وكيف ما كان . نحن منعرف صالحهم أحسن منهم . أنا بتكفّل بناصيف . ناصيف ولو كان رجال — بعده بيقبل من بيّه وبيسمع منه . ها الجيل الجديد يا ام الياس الله يسترنا منه . عشنا وعاش جدودنا قبلنا . ما كنّا نسمع ببنت تكسر كلمة أمّها يمّا بيّها . اليوم بيطلعوا لنا بخبار خبار : ساعه الجواز بلا عشق ما بيسواش . ساعه بدهم يتجوّزوا بلا خوري . ساعه بدهم يطلّقوا أي وقت كان . إلاّ اخلصي — مليح اللّي الله بعده رافع السما عنّا .

ام الياس نشكرك يا ربّي ونحمدك . (سكوت)

موسى وهلّق شو رايك ؟

ام الياس الراي عندك .

موسى رايبي – من بعد أمرك – انّك لا تخلّي زينة بقا تشوف هالملعون . هادا شيطان ملفلف . لا له ذمّه ولا له دين . يمكن يكون ساحر – ألله أعلم . ثمّ بعده . رايبي إنّا نعجّل بالعرس قدّ ما فينا . وأنا عليّي بالخوري .

ام الياس الخوري ما فيش عاقه منّه . الخوري حتّا لو قلت له الأبيض أسود بيقول أسود . ولو قلتلّه زتّ حالك بالنّار بيزتّ حاله .

موسى وحتّى نسكّر تمام النّاس بشوف موافق انّك تروحي تجيبي زينة لهون حتّى نصالحهم هي وناصيف وبيرجع كل شي عا بيت صحابه .

ام الياس (ناهضة)
قولك عالراس والعين يا موسى بيك . وانت يا ناصيف بيك لا تزعلش . ما بيصير إلاّ عا خاطرك . (تخرج)

المشهد الرابع

موسى – ناصيف

موسى أرأيت كيف تدبّر الأمور ؟ تعلّم . تعلّم . نظم الأشعار فنّ والسياسة مع الناس فن آخر . والآن ،

إذا لم تعاكسني الأحوال ، سأملأ جيبك مالاً وأرفع مقامك بين النّاس . لا يعيش اليوم إلاّ الغني يا ابني . المال كلّ شيء . ضع هذا نصب عينيك دائماً . المال هو القوّة والشهرة والاعتبار والكل في الكل . شعر ما شعر — حطّ بالخرج يا ابني . الناس مع الواقف .

(يفتح الباب ويدخل خليل)

المشهد الخامس

موسى — ناصيف — خليل

خليل مرحباً .

ناصيف (ناهضاً لمصافحته)

ادخل . ادخل . منين الله بعت لي اياك هلّق ؟

(موسى بك يأخذ نارجيلته ويخرج)

خليل من الجنّة .

ناصيف اجلس .

خليل (يبقى واقفاً)

اجلس ؟ هلّق وقت جلوس ؟ كم مرسال بمرسال بدّك نبعت وراك ؟ فزّ ! حنّا سركيس ومخايل عون ناطرينّا برّا . اليوم الخميس يومك

السعد . والله بتشلّح ابن عون اليوم قميصه اللّي عا جلده . بزمانك خسرت شي نحاسه يوم الخميس ؟ لا ؟ فإذن قُومْ . شوباك ؟

ناصيف ما باليش بالقمار هلّق يا خليل . خلّيني بحالي .

خليل وبأيش بالك ؟ بالنسوان ؟ قوم ! عيب عليك والله . بعدها آخده عا خاطرك دعوة الخاتم ؟ يا عيب الشوم . كلمة من شقفة مَرَه بتنيّمك بالفرشه سنة ؟ قوم ! (يأخذ بيده)

مْنِلعب لنا دقّ دقّين . بتطير زاعولتك . إن كان زعلك عا شان زينة أنا بتكفّلك بزينة . زينة لك وحياة راسك . أنت تعا معي وأنا بفرّج همّك .

ناصيف قلت لك خلّيني بحالي يا خليل . ما بقدرش روح هلّق . لكن بدّي أقصدك بشغله .

خليل ما تكرم عينتينك . لكن عجّل . الكدعان ناطريني برّا .

ناصيف بدّي ياك تقول لزينة انّه هادا هالنغل — داود سلامه — مجوّز . وانّه هالبنت اللّي عنده اللّي يقول انّها اخته — هي مَرته — عايش هو وايّاها بالحرام . وانّه ممروض . بتعرف ، مرض خبيث ؛ فهمت ؟

خليل ما تكرم عينتينك ! بقول لها انه مجوّز ، وانّه مطلّق . وانّه عنده عجّال ولاد . وانّه مسلول وصايبه زنتاري وهوا أصفر ، وانّها امّه كانت عورا وبيّه أخوت بالمارستان ، وجدّه كان أبرص . ولَكْ انت القي هالحمله عا خليل وغنّي يا موليّا . ما تكرم شواربك !

(يهم بالخروج ثم يرجع)

لكن وينك — ولو طِلْعِت تِقْله — بدّي منّك شي ليرتين تلاته . مبارح كان عليّ نحس . شلّحوني عالمنضوف . لكن اليوم يومي . والله لآخذ لك كل نحاسه معهم . بدّي ليرتين تلاته بس . ما استرجتش أطلبهن من امّيه . بحياتك عجّل ! وطمّن بالك من يمّ زينة .

ناصيف (يخرج محفظته)

كل شي معي تلات ليرات كيف بدّي أعطيك هن ؟

خليل ليرتين بيكفّوا . ليرتين . عجّل بحياة شواربك !

(ناصيف يعطيه الليرتين)

الليلة برجّعلك هن مع الفايض ، فايض الميه ميتين . مليح ؟ خاطرك هلّق ، متل ما قلت لك ، طمّن بالك من يمّ زينة . ما دامني أنا

بالوجود زينة ما بياخدها حدا غيرك . خاطرك .
(يخرج . بعد سكوت قصير يدخل موسى بك وفي يده نارجيلته)

المشهد السادس

ناصيف — موسى

موسى	خير إنشاء الله ؟
ناصيف	وعدني أن يعمل كما أشرت .
موسى	(يجلس كما كان جالساً قبلا)
بعدك بتقول بيّك خرفان ! (يسعل بشدة)
هالسعله بدّها تقصف لي عمري بكّير . لكن
إذا متّ هلّق بموت مرتاح البال . (سكوت)
(تدخل ام الياس جاذبة زينة بيدها)

المشهد السابع

ناصيف — موسى — أم الياس — زينة

ام الياس	فوتي . فوتي . ما حدا راح ياكلك ولا حدا راح
يشنقك . صبّحي عمّك بو ناصيف . موسى بيك
بيحسبك متل بنته .
موسى	(إلى زينة)

أهلاً وسهلاً بزهر البان ! (يقف إجلالا)
شايفه اللحمه عالضفر ، أنا وبيّك بالزمان كنّا متل اللحمه عالضفر . تفضلي . تفضلي . ناصيف زعل شوي . وأنا زعلت شوي . لكن هلّق كل شي راح عا بيت صحابه . تفضلي . تفضلي .
(يأتيها بكرسي ويجلسها . زينة تجلس) .
مراة خيّي ام الياس ! ام الياس ! عاوزك بكلمه عملي معروف .
(يغمزها ثم يأخذ بيدها ويخرج الاثنان . ناصيف بك يبقى واقفاً وزينة جالسة . ناصيف بك يأتي بكرسي ويجلس بالقرب من زينة . زينة تنظر إلى الأرض وتلعب بطرف فسطانها . وناصيف بك يلعب بسلسلة ساعته)

المشهد الثامن

ناصيف — زينة

ناصيف (بعد سكوت ممل)
قح . قح .
(متنحنحاً يخرج خاتم الخطبة من جيبه ويتقدم نحو زينة ليأخذ بيدها ويضع الخاتم في إصبعها)
أظنّكِ قد أفقت من سكرتك الآن .

زينة (ساحبة يدها بلطف)

لا أعلم أنّي سكرت في حياتي حتّى أفيق .

ناصيف (ماداً يده نحوها) . أعطيني يدك .

زينة وماذا تطلب من يدي ؟

ناصيف أحبّ أن أصالحك وأن تعودي عروسي كما كنت .

زينة الأحسن أن لا نتصالح إذن .

ناصيف أتريدين أن تبقي عدوّتي ؟

زينة لا أريد أن أعادي أحداً إذا أمكنني . لكنك إذا كنت تطلب عداوتي فأنت المسؤول لا أنا .

ناصيف وهل تظنّين أنّي أطلب عداوتك ؟

زينة نعم .

ناصيف وكيف ذلك ؟

زينة لأنّك تعلم أنّي أحبّ سواك ولا تزال ، مع ذلك ، تضطهدني وتضطهد من أُحبّه .

ناصيف ولماذا لا تحبينني ؟

زينة لأنّي لا أُحبّك .

ناصيف إذن لا تزالين متعلّقة بهذا الـ . . . هذا الصعلوك — داود سلامه ؟

زينة قل لي لماذا جاؤوا بي إلى هنا ؟ ألأسمع منك كلاماً كهذا الكلام ؟ إذا شئت أن تتابع حديثك فالأفضل أن لا تذكره بلسانك بعد .

ناصيف	حسن . لن أذكر اسمه بعد . ماذا وجدت فيه من الحسنات وبماذا تفضّلينه عليّ ؟ أنا بيك وابن بيك وهو مجهول الحسب والنسب ، والأرجح أنّه ابن فلاّح . أنا شاعر صيتي طبّق الآفاق ، وهو معلّم لا يكاد يعرف بوجوده أحد . أنا . . . لا أحتاج إلى الشغل لأجل معاشي ، وهو فقير ليس عنده عشاء ليلة . وأخيراً سحنته ليست أجمل من وجهي . فماذا يحببك به ؟

زينة	أحبّه لأنّه رجل . وبعد ذلك فماذا يعنيك إذا أحببته أو أحببت سواه ؟ يكفيك أنّي لا أُحبّك .

ناصيف	وما نفعك من حبّه إذا كان لاسبيل للوصول إليه؟

زينة	ما زلت أنت في طريقي فربّما تعذّر ذلك .

ناصيف	إذن سأبقى في طريقك ما زال هو في طريقي .

زينة	اسمع يا ناصيف بيك . دعني أحدّثك حديثاً معقولاً الآن . لماذا تطلب الاقتران بي ؟

ناصيف	لأنّي أُحبّ أن أتزوّج .

زينة	ولماذا لا تفتش عن سواي ؟

ناصيف	ولماذا أفتّش ما دمت قد وجدت واحدة ، والكل يقولون إن زواجنا مناسب ، أمّك تقول كذا . وأبي يقول كذا . والنّاس يقولون كذا .

إلاّ أنت . فهل تظنّين أنّك أفهم من كلّ النّاس ؟

زينة ولماذا تطلب الزيجة ؟

ناصيف ولماذا يتزوّج النّاس ؟

زينة ناصيف بيك . عبثاً أحدّثك فأنت لا تفهمني . قلبي لا يميل إليك على الإطلاق . هل تفهم ذلك ؟ قلبي يميل إلى سواك ويحبّ أن يكون مع من يميل إليه . هل هذا بسيط ؟ إذا قدّر الله وتمّ اقتراننا — وأنا لا أقدّر ذلك — فسيكون هذا الاقتران سبباً لهدم سعادة ثلاثة أشخاص — سعادتك وسعادتي وسعادة من أحبّه . إذا تمّ اقتراننا فحياتك معي ستكون عذاباً دائماً . هل قرأت عن جهنّم في الإنجيل ؟ حياتك معي وحياتي معك ستكون أشدّ هولاً من جهنّم . فدعني وشأني . ولنفترق صديقين لا عدوّين . (تبكي)

ناصيف ابكي . ابكي . فخير لك أن تعرفي أنّك « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » . لقد تحمّلت منك كثيراً ، وسمعت أكثر . وقد عزمت الآن أن لا أتحمّل أكثر ممّا تحمّلت . ناصيف بيك عركوش في زمانه لم ينسحب من وجه صعلوك ، زنديق كابن سلامه .

زينة (تثب عن كرسيها بغضب).

قف! قف! لا تذكر اسمه بفمك. أيلذّ لك مرأى دموعي آ؟ فاعلم أنّك لن ترى بعد دمعة واحدة تسيل من عيني بسببك.

(تمسح دموعها)

ظننتك إنساناً. ظننت أن فيك قلباً. والآن أدركت خطإي.

(ناصيف يقترب منها وقد أدهشته سرعة غضبها)

لا تمسني بيدك! ابتعد عني. ابتعد عني!

المشهد التاسع

ناصيف – زينة – موسى – أم الياس

موسى (يدخل وام الياس وراءه)

شو صار؟

ام الياس شوبو صوتك طالع؟

موسى (إلى ام الياس)

ما بتعرفيش كامراة خيّي العريس والعروس؟ عن يتولدنو تخمين.

ام الياس مش دعوة ولدني. هَيْ هالمغضوبه بدها تطيلعني

عن ديني بعد . (إلى زينة) ليش طالع صوتك يا مزنتره ؟ ريته يختفي إن شاء الله .

موسى (إلى ام الياس)

وينك ، وينك كامراة خيّي ، متل ما قلت لك . دعوة رهدنه مش أكثر .

المشهد العاشر

ناصيف – زينة – موسى – أم الياس – الياس – داود

الياس (يدخل فجأة ووراءه داود . الحضور ينظرون إليهما منذهلين)

أين زينة ؟ أين زينة ؟ أمّي ، ماذا فعلتِ بزينة ؟

(يراها واقفة وراء موسى بك)

أنتِ هنا ؟ أنت هنا ؟

(ينطرح إليها ويعانقها)

لماذا جاؤوا بك إلى هنا ؟ هل كلّلوك بعد ؟

ام الياس (بحنق)

ولك انت جنّيت بفرد مرّه تخمين ؟ ضب لسانك ورا اسنانك واعراف وينك ! مش شايفني أنا هون تخمين ؟

الياس أمّي ! أمّي ! لماذا جئتِ بزينة إلى هنا ؟ أنتِ

تريدين أن تهلكيها . تريدين أن تعطيها لرجل لا تحبّه . وهذا لن يتمّ ما دمت حيّاً . زينة عندها عريس واحد . عريس واحد فقط . هو الإنسان الذي تحبّ أن ترافقه كلّ حياتها . وذلك الإنسان هو . . .

(يذهب إلى داود ويجذبه بيده إلى وسطُ الغرفة)

هو هذا الشاب . هذا عريسها الوحيد .

ام الياس (تنطرح نحو الياس رافعة يدها لتضربه. موسى بك يأخذ بيدها)

ولك أنا قلت لك سكّر تمّك .

موسى (بلهجة مصالح)

مْرَاة خيّي ام الياس . مراة خيّي ام الياس ! يا حيف عليكِ ! بتحطّي عقلك بعقله ؟ الياس طبعاته حدّين شويه . اسمحي لي بكلمة اعملي معروف . كلمة لا غير .

(إلى الياس)

يا الياس ! انت عن تدوّر عا صالح أختك — ولو ما كنت بتعرف صالحها — مع هادا وكلّه — برافو عليك ! أنت عالراس والعين . لكن حضرة الشاب ايش شغلته هون ؟ ايش دخله بالنص ؟ أنا بعد ما تشرفتش بمعرفته .

الياس هذا الشاب يفتّش عن صالح زينة مثلي وأكثر مني .

موسى في عندكم شي خيّ يمّا ابن عم جديد أنا مش عارف فيه ؟ إن كان حضرته ابن عمّها — هادا حدّ علمي . وأهلاً وسهلاً فيه .

الياس ليس ابن عمّها ولا ابن خالتها . هو يحبّها أكثر منّي وهي تحبّه أكثر ممّا تحبّني . وهذه هي القرابة بينهما . قرابة قلوب لا قرابة دم .

موسى وشو عرّفك انّها بتحبّه ؟ سألتها شي ؟

(إلى زينة)

صحيح بتحبّيه يا بنت خيّي ؟

زينة (تحمر خجلا وبعد سكوت قصير)

نعم .

موسى حلو .

(إلى داود) وانت يا حضرة الأفندي شو الاسم بالخير ؟

داود داود سلامه .

موسى والنعم — والسبع تِنعَام — وانت بتحب هالبنت يا حضرة الأفندي ؟

داود نعم .

موسى حلو . مقبول . شو بتريد من ها البنت يا حبيبي ؟

بدّك تاخدها ؟

داود إذا رضيت هي بي .

موسى (إلى زينة)

وأنتِ بتحبّي تاخديه يا بنتي ؟

زينة إذا رضي هو بي .

موسى كلّه عا الراس والعين . فإذن تنينكم راضين .
يا مراة خيّي ام الياس – الله يتمّم النصيب .
أنا وابني عا حياده .

ام الياس (مذعورة)

أنا ! ؟ أنا تا ارضى لبنتي بها النصيب ؟ بنت بطرس سماحه تا تاخد بسترند . كافر . نوري . فرمسوني . . .

موسى (إلى ام الياس)

دستور . دستور بكلمة بعد يا اختي ام الياس .
(إلى داود) بعد لي عندك ها المسألة : إذا أخذت هالبنت الحلال شو بدّك تعمل بمرتك اللّي عندك هلّق ؟ ناوي تطلّقها ؟

داود امرأتي ؟ ماذا تعني ؟

موسى أو . لا تاخدنيش وتجيبني . يعني ها المرا اللّي عندك واللّي بتقول إنّها أُختك . أنا بعرف ،

وأنت بتعرف وكل العالم بيعرف أنّها مرتك مش أختك . المثل بيقول : ما فيش بزقه تحت لزقه بتختفي . هَيْ ها المرا ، ايش بدّك تعمل فيها ؟ يمّا بدّك تاخد تنين ؟ هادا بشريعة النصارى ما بيجوز يا ابني .

داود (يتميز غيظاً . الباقون ينظرون ويسمعون منذهلين)

وَيْحَك ! هذه أختي . أختي من أبي وأمّي . ربّي . هل أنا بين ذئاب ! ويحكم — أما يكفيكم أنّكم تحاولون أن تهلكوا هذه الفتاة الطاهرة حتّى تهلكوا معها فتاة أخرى طاهرة مثلها ؟

ام الياس بدّي أعرف أنت شو دخّلك بيني وبين بنتي ؟ شو بيخصّك من بنات النّاس ؟ أنت . . .

موسى (يقاطعها)

دستور شويّه . دستور شويّه يا مراة خيّي . بعد بدّي اسأل الأفندي ها المسألة . يا ابني بنات النّاس مش داشرين . ومتل ما انت بتفتّش عا مصلحتك النّاس بيفتّشوا عا مصالحهم . سلّمْنا معك ان هالمرا اللّي قاعده معك أختك . تا نقول إنّها أختك . الله يستّر عا البنات . لكن ها المرض اللّي معك شو بتعمل فيه يا ابني ؟ هادي جازي

نصرانيّة — لا فراق ولا طلاق . بدّك تعدي مرتك والكل ؟ هادا حرام عند الله وعند العبد . بنت متل هيْ (يشير إلى زينة) — وردة بأوّل عمرها — تروح تعديها بمرض لا طبيب بيشفيه ولا الله بيشفيه ! هادا حرام يا ابني .

داود (يحرق أسنانه غيظاً)

خسئت ! خسئت ! . .

موسى (يقاطعه)

دستور شويه . روّق عن بالك .

(إلى ام الياس)

بدّك إيّاه يا مراة خيّي ام الياس ؟

ام الياس (تصرخ)

لا . لا . لا . خلّيه يروح من هون . خلّيه يقفي من وجهي !

موسى (إلى زينة)

بدّك إيّاه يا زينة ؟

(زينة تبكي ساكتة)

داود هذا بيت لصوص . هذا بيت ذئاب . هذه مكيدة . ويحكم ! ويحكم !

موسى أوْ هُوْ ! عراف حدّك . طوّلنا روحنا عليك

بزياده . هلّق كاني ماني ما عاد في . اعمل معروف — اعطينا مَدْوَر زنّارك .

(يأخذه من يده ويدفعه)

ناصيف عندك واياه .

(ناصيف ينطرح إلى داود ويدفعه إلى الخارج بالقوة) . الياس يحاول الدفاع عن داود) .

داود (مدافعاً عن نفسه بعنف وقد تقدم الياس لنجدته)

لصوص ! لصوص . زينة . . .

(ناصيف يطرحه خارجاً ويقفل الباب . الياس يشتبك مع ناصيف)

زينة (تثب عن كرسيها وتنطرح نحو الباب)

داود ! الياس ! داود ! . .

(تقع على الأرض)

الستار

الفصل الرابع

الفصل ربيع . الساعة العاشرة صباحاً . حديقة فاكهة حول بيت سماحه . إلى اليسار يرى جدار من جدران البيت فيه أربعة شبابيك . في الدور الثاني شرفة في الوسط . في وسط الحائط من الدور الأرضي باب وإلى جانبه نافذتان . حول الحديقة سور عال من الحجر . في الزاوية اليمنى بوّابة تؤدي إلى الخارج . من باب البيت يمتدّ ممر ينتهي عند جدار الحديقة الغربي. وآخر يمتد من الشمال إلى الجنوب قاطعاً الممرّ الأوّل في الوسط. على طول السور — عند أسفله — وعلى وجهتي الباب أشجار ياسمين مشتبكة الأغصان . في الحديقة أشجار من التفاح والخوخ والمشمش والسفرجل واللوز — بعضها قديم وبعضها فتي وكلّها مغروس بغير ترتيب. أشجار التفاح والخوخ مزهرة . إلى الجنوب الغربي من ملتقى الممرين شجرة تفاح قديمة مكسوّة بالزهر تحتها مقعد خشبي . على المقعد أم الياس وموسى بك . في يد أم الياس مكوك وبكرة خيطان . في يد موسى بك عصا غليظة . حول رقبته طوق مكوي لكنه مكسر ومغطّى بالوسخ من العرق والغبار ، وعقدة غليظة قديمة ممزّقة . ثيابه إفرنجيّة لكنها قديمة العهد لم ترَ الكاوي من زمان . على صدره سلسلة فضيّة غليظة . وعلى رأسه طربوش أحمر أطرافه مكسرة وقذرة .

المشهد الأول

موسى – ام الياس

موسى (منحنياً على عصاه)

لكن قلتِ لي زينة صارت تروح وتجي اي ؟ الحمد لله عا السلامه يا مراة خيّي .

ام الياس (بتخشع)

الله يشكر حمدك .

موسى صدقيني – من يوم اللّي سخنت ها البنت وأنا متل الملطوش على راسي : لا يهنالي أكل ولا يهنالي شرب . إن نمت ما افتكر إلاّ فيها . وإن قمت ما افتكر إلاّ فيها .

ام الياس ما في شك بمحبتك يا موسى بيك .

موسى لكن لو بتشوفي ناصيف ! هاداك لا عاد ياكل ولا عاد يشرب . اسم زينة ما يطلع من تمّه . كيف ما راح كيف ما إجا : زينة . زينة . زينة . قال : إن ماتت زينة – لا سمح الله – بدّي موت وراها . ليش الحكي – بيحبّها حبّ مش بوعي . حب فوق الوصف يا مراة خيّي ام الياس .

ام الياس — عن تخبّرني أنا ؟ ما بعرفش ناصيف ؟ بيحبّها يا ولدي ، لكن ، سبحان الله ! ليش تا بيقولوا — المحبّة خصايص والغضب عموم . هي إذا ذكّرْت لها اسم ناصيف بيطير صوابها . بتجن بفرد مرّه .
(بأهمية)
ضميري ناقزني انه حدا كاتب لها لهالبنت . مِنْ قلّة المحسدين والمبغضين . بعدك فايق لمّن جيت تْشقّ عليها وهي ساخنه انت وناصيف بيك ؟ بعلمك ها البنت غايبه عن وجه الدني . ها الحمّى عليها تقلي وتشوي ! هيْ ليلة الكانت مخطره كتير . ليلة القال الحكيم إنّها هات تصافح هات ما تصافح . لا عادت عرفتني ولا عرفت إخوتها ولا عرفت حدا . لكن بسّ قرّب ليها ناصيف وقال لها : بتعرفيني يا زينة ؟ فتحت عينيها وبسّ لمحته ولعت متل الحوته وصرخت صوت — الله المجير — أنا قلت راحت من إيدي البنت : « خذوه من هون ! » حتّى ما عادت شافت أثر ناصيف بالأوضه . ومن بعدها — ولدي — ضلّت تترقوص بنومها وتعيّط : « خذوه من هون ! »

مومى — عا حجّة الحمّى الواحد بيقول ايش ما كان . ما

بتعرفيش المحموم كيف بتضيق منافسه وبيصير يلاطش خياله ؟

ام الياس ولدي قدّيش قضّت ! ولدي قدّيش ذاقت ! شايف قشة الشوفان – متل قشة الشوفان صارت . لو بعرف منين جابت السمّ ؟ الحكيم قال انه السم سرح بجسمها . ربّك ستّر ما وصلش لقلبها . عشرين ليلة وعشرين نهار ضلّت عا فرد حال . لا طيّبه معروفه ولا ميّته معروفه . لولا ها البنت الحلال – الله يوجهلا الخير – هيّ شهيدة ، أخته للمعلّم داود ، لولاها كانت قشطت زينة ، يا ولدي ، من ايدي .

موسى الطبيب الله سبحانه في ملكه . العبد ما بيطلع بإيده شي .

ام الياس أوّل ليلة الوقعت فيها زينة إجت ها البنت الحلال – شهيدة – وقالت لي « خليني اخدمها ». أنا – بدّك للصحيح – رجفت مصاريني منها . كنت بعدي مخمنتها ، متل ما قلت ، بنت عاطله . وانها مش أُخته للمعلّم داود . لكن زينة ما كانتش تخلّي حدا غيرها يقرّب صوبها . قلت : يا ويلاه . ما دام زينة بدّها اياها خلّيها تقعد .

ويا موسى بيك ! أنا وقعت عيني عا بنات كتير ، لكن متل ها البنت لا شفت ولا بقى شوف — الله ما خلق متلها . قعدت فوق راس زينة متل ها الملاك . ضلّت عا يومين تلاته لا تاكل ولا تشرب . جنس النوم ما كانت تعرفه . ما فيش ساعه باللّيل افتح عيني إلاّ شوفها قاعده عا هالكرسي متل الصلّوب . سلخت لي قلبي . بالآخر قلت لها : قومي نامي لك شوي يا بنتّي أنا بقعد مطرحك . لا سمح الله انها تنام ، قالت : انا صبية يا خالتّي ام الياس . فيّي اسهر . انتِ ختياره . ما ألبق ديّاتها وما أطرا لسانها ! الحكيم انجلق فيها . مبارح بيقول لي : ان كانها بنتك خلّصت ما حدا خلّصها غير ها البنت الحلال . لازم تركعي قدّامها وتغسّلي لها جريّها كل صباح ومسا وتشربي زومهن .

موسى لكن انتِ مصدّقه انها اخته ؟

(يحاول إخفاء امتعاضه)

ام الياس لا . لا . حرام يا موسى بيك حطّ بنت متل هيّْ بذمّتي . بنت متل هيّْ بزمانها ما بتعرف النقص ولا بتمشي على دروب العطّال . لا . لا . لا .

حرام . وبعد هادا وكلّه ، هي متل خيّها مـْخَلق مـْنْطق . مين ما شافهم بيقول مِن فَرْد امّ وبيّ . لا. لا. بنت آدميّه — بلا زغره — تا يفضل عنها. فقيره بسّ .

موسى وهلّق شو ناويه تعملي بزينة يا مراة خيّي ؟

ام الياس أنا بعرف ؟ يعرفني طاعون ! بعد ها اللّي ذقته وها اللّي قضّيته يا موسى بيك ما عاد لي عزم يتحرّك ولا لسان يحكي . أنا نذرت نذر . انه إذا صحّت ها البنت خلّيها تعمل اللّي بدها اياه . أنا لا عدت قول لها خدي فلان ولا خدي فليتان . بدها ناصيف تاخده . بدها ابن سلامه تاخده . بدها القرد الأسود تاخده . أنا بدّي نزّل الحمله عن ظهري . بيقدّيني ها اللّي صابني .

موسى لا تواخذيني يا مراة خيّي إذا قلت لك ها الكلمه ، ولو طلعت تقيله — كل شي صابك من إيدك . من رخاوتك . أنا كنت عدّك أُخت الرجال . لكن ايش بدّي قول إذا كنت بشوفك بتمشي عا هوى بنتك وبتفزعي تكسري لها خاطرها ! هيّ رخاوه يمّا لا ؟

(زينة وشهيدة تخرجان من البيت إلى الحديقة متجهتين نحو الغرب وآخذتين الواحدة بيد الأخرى)

المشهد الثاني

أم الياس – موسى – زينة – شهيدة

زينة (وآثار المرض لا تزال بادية على وجهها ، تمشي الهوينا . وتنادي بصوت ضعيف) .

يا أمّي ! يا أمّي ! أين أنتِ ؟

ام الياس (باسمة)

أنا هون يا روح امّك . هون تحت التفّاحة .

(زينة وشهيدة تتجهان نحو التفاحة)

ام الياس (إلى موسى بك)

بتقول لي رخاوه . ايش بدّي أعمل أكثر من هيك ؟ أكثر ما ضربتها وحبستها بالبيت وصوّمتها عاريق بطنها ؟ لو ماتت – لا سمح الله – ما كانوش النّاس بيقولوا امّها قتلتها ؟ وأنا دمدم قلبي من حكي النّاس يا موسى بيك . ما حاجتيش اللّي صابني ؟ ما حاجتيش حكي النّاس ؟ أنا اللّي عملته ما حدا عمله . واللّي احتملته أيّوب ما احتمله . هلّق بتجي لهون . قنّعها تا تاخد ناصيف بيك . احكي لها شي كلمتين يقطعوا

عقلها — بلكي بتسمع منّك .

(شهيدة وزينة تقتربان من التفاحة)

أنا هون يا بنتي يا روحي . أنا هون .

زينة (مقتربة مع شهيدة من أمها وموسى بك)

يا أمّي بدّي بشّرك بشاره . . .

(يقع نظرها على موسى بك فتقصف راجعة إلى الوراء وجاذبة شهيدة بيدها) .

ام الياس زينة ! زينة !

زينة (دون أن تلتفت إلى الوراء)

ماذا يعمل هذا الرجل هنا ؟ ليذهب من هنا !

المشهد الثالث

أم الياس — موسى

ام الياس شفت ؟ ايش طالع بإيدي بعد ؟ بقدر بنزل فيها بالعصا ؟

موسى لا تلوميهاش . لا تلوميهاش يا ام الياس . بعدها قايمه من السخونه جديد . لكن لومي حالك . شايف لك انتِ ناويه عا هلاكها ، مش هيك أملي فيكِ يا ام الياس !

ام الياس يا تعتيري أنا ! قل لي : ايش بعمل ؟ ايش بسوّي ؟

موسى انتِ اخت الرجال وعن تسأليني ايش بتعملي ؟ منّي ومنّك أنا إذا كنت بعرف انها بنتي عاشقه إنسان دون ، سقط ، الله بيعلم شو دينه وشو أصله ، وإذا كان مقدّم لها عريس آدمي وابن أوادم ، ما كنتش بقعد بداديها على خاطرها ، بجيب الخوري وبصلّيها — وخلْصتْ المسأله . اسمعي منّي تا روح ورا الخوري اليوم واشرح له السيره . وأنا بتكفّل انه بيصلّي . بدّك أحسن من هيك ؟

ام الياس وبلكي رجعت ها البنت وسخنت وماتت — لا سمح الله — ايش بيقولوا عنّي النّاس ؟

موسى شو بدّك بالنّاس . يحكوا تا ينشقّوا . انت عليك تدوّري عا صالح بنتك . هيك يمّا لا ؟

ام الياس هادا مأكّد .

موسى ساعتها ليش الرايح والجايي — خلّيني روح ورا الخوري وأنا بتكفّل لك انه إذا صابني شي ها البنت بيصيبها شي . بدّك أكتر من هيك ؟ عليّي . أنا كفيل ضمين انه ها البنت ما بيصيبها عطب .

ام الياس اوف . اوف . ما بعرف ولا بدري . قلبي ناقزني .

الله يسترني ويهوّنها عليّي .

موسى	قلت لك أنا كفيل ضمين . من ايش فزعانه بعد ؟

ام الياس	أنا فزعانه حطّ ها البنت بذمتي . لكن إذا كنت بتكفل انه ما بيخسها شي عمول بمعرفتك . أنا بروح بحاكيها كلمتين ، بلكي بتقنع منّي .

موسى	(ينهض)
فإذن أنا رايح . عن قريب بردّ عليك خبر ومنشوف شو منعمل .
(يذهب نحو البوابة ويخرج)

المشهد الرابع

أم الياس — زينة — شهيدة

ام الياس	أنا ريتني ما كون . إن كان ها البنت بيعود يخسها شي ، ايش بيعود يخلّصني من لسانات النّاس ؟
(تنهض وتذهب نحو البيت . تلتقي بزينة وشهيدة آتيتين نحو التفاحة فتأخذ زينة بيدها وترجع الثلاث إلى المقعد . زينة وام الياس تجلسان . شهيدة تبقى واقفة) .

زينة	هل انصرف هذا الشيطان من هنا يا أمّي ؟

ام الياس	عيب يا بنّي ، عيب . ما اسموش إلاّ رجال

ختيار ومنشاف بين النّاس .

زينة عيب أن ندعو الشيطان شيطاناً ؟ هذا ليس شيطاناً بسيطاً يا أمّي . هذا شيخ الشياطين . ألم تسمعي بأذنك ما قاله عن داود وشهيدة ؟ لولاه لما جرى لي ما جرى ولما احتملتِ ما احتملتِه من العذاب لأجلي .

ام الياس يا بنتي شو لنا عند العالم ؟ إنسان بدّو صالحنا . مينْ قول له — ديّات بيّك ؟

زينة هذا العفريت يريد صالحنا ؟ ما أبسط قلبك يا أمّي ! هذا لا يفتّش عن صالح أحد سوى صالحه . لا يهمّه أحد في الدنيا سوى نفسه . أتظنّين أنّه يطلبني لابنه حبّاً بابنه أو بي ؟

ام الياس لكن ليش يا بنتي ؟

زينة أو . أمّي . أمّي ! (تضحك)

إنّي أعرف أشياء كثيرة لا تعرفينها . هذا المحتال قد أثقلت ظهره الديون . ابنه مديون وهو مديون وبيته مرهون . فهو يريدني حبّاً بدراهمي وليس بي أو بابنه . ويريد أن يفي ما عليه من الدين قبل أن يبيعوا بيته ويضعوا ابنه في السجن . نعم هذا أكبر خدّاع ومداجٍ في العالم .

ام الياس   اسمعي ايش بتقولي . موسى بيك مديون ؟ هادا ما بيصير .

المشهد الخامس

أم الياس – زينة – شهيدة – خليل

خليل   (يدخل من الباب إلى الحديقة راكضاً ومنادياً) .
وين رحتوا ؟ زينة ! الياس ! أمّي ! وينكم ؟

زينة   هنا . هنا يا خليل .
(إلى أمها) هذا صائر يا أمّي . وسينكشف عن قريب .

خليل   (مقترباً من التفاحة)
ولك وينكم ؟ (يراهن)
عرفتوا ؟ عرفتوا ايش صار ؟

شهيدة   ماذا ؟ ماذا ؟ هل حدث مكدر لإلياس أو داود ؟
ماذا ؟ عجّل !

خليل   (مقهقهاً)
ولَكْ البيك البيك . بيكنا . حبسوه . . .

زينة   (تثب عن مقعدها وتعانق خليلا متهللة)
موسى بيك أو ناصيف بيك ؟

خليل ناصيف بيك . ناصيف . قه . قه . قه . العسكري يقول له : تفضّل عا الحبس ، وهو يغنّي — البوكر قرّح لي قلبي . قه . قه . قه . قه .

ام الياس ولك عن تضحك يمّا عن جدّ ؟

خليل عن بضحك ؟ ريتني اضحك أنا وكل أهلي إن شا الله — وايش بعمل ؟ ببكي ؟ شي بيضحّك غصب . قاعدين كنّا أربعتنا بقهوة الجسر شربنا هلّي شربناه وعن نلعب دق بوكر . ناصيف بيك مكيّف — ربحان شويه . لا عنده ولا عند باله . وإلاّ جايي عسكريين : « مين منكم ناصيف بيك العركوش ؟ » ناصيف قال « أنا » خمّن جايتو عزيمه من القائمقام . « تفضّل عا الحبس » ليش ما ليش ؟ قالوا « دعوة مداينية . بالمحكمة بيخبروك ليش » . إجا بدّو يحكي طالع نازل — سحبوه متل الكلب . ساعتها ما عاد فتح تمّه . قه . قه . قه . يا حوينتك يا ناصيف بيك . البوكر قرّح لي قلبي ! قه . قه . قه .

زينة (بفرح إلى أمها)

ألم أقل لك يا أمّي ؟

خليل هادا ما هو شي . الضربه على بيّه اللّي عن يبيعوا

له بيته بالمزاد . على أونا . على دوّه . اللّيله يمّا بكرا بيكحتوه من بيته متل الكلب .

ام الياس (بدهشة كلية)

موسى بيك ؟

خليل اي . اي . موسى بيك ما غيره . موسى بيك بو قرعه .

ام الياس (ضاربة رأسها بيدها)

تِنْكِحْري يا بنت العرموني ! ولك موسى بيك هلّق كان هون .

خليل هلّق كان هون وهلّق راح يحضر بيع بيته .

ام الياس (تمشي صوب البيت)

سبحانك يا ربّي في ملكك . هالدني كيف هيي مركّبه شكل .

خليل (يتبعها)

ما عليش يا امّي . ما عليش . صعبت عليك ؟ ياما بيجي من الله .

(يخرج الاثنان)

المشهد السادس

زينة – شهيدة

زينة (تعانق شهيدة بفرح وبلهفة)

شهيدة ! شهيدة ! لماذا لا ترقصين ؟ لماذا لا ترتّلين ؟ لماذا لا تقولين شيئاً ؟

شهيدة وماذا أقول ولساني لا يتحرّك من الفرح ؟ قلبي يرقص وقلبي يرتّل .

زينة (تهزها من كتفها)

شهيدة ! طفح قلبي . طفح قلبي بالفرح . صلّي . قولي معي « نشكرك يا ربّ ! » أتدرين ماذا يعني كلّ هذا ؟ أوْ – شهيدة ! لماذا لساني قصير ؟ لماذا لا أقدر أن أقول ما أُحبّ أن أقوله ؟ شهيدة ! حبيبتي ! لولاكِ لما كنت واقفة الآن هنا أرتجف من الفرح . لولاكِ لما عشت لأرى هذه اللحظة وأتمتّع بهذه السعادة . (تقبلها) شهيدة ألستِ سعيدةً مثلي ؟

شهيدة مثلكِ وأكثر . سعيدة بسعادتي وسعيدة بسعادتك .

لكني ، لشدّة فرحي ، قد ارتبط لساني . وأخاف إذا تكلّمت أن تفلت مني سعادتي كما يفلت عصفور من قفصه .

زينة وأنا أحبّ أن أسكت كذلك — لكن لا أقدر . لساني يتحرّك رغماً عني . وإذا سكت لساني تكلمت عيناي ويداي وكل أعضاء جسدي .

شهيدة لا تنسي أنّك لا تزالين في طور النقاهة وأن التهيّج يؤثر بك .

زينة تهيّج كهذا ينفع ولا يضرّ يا شهيدة . وإذا جاء الموت بسببه فأهلاً بالموت . لكن ، شهيدة . قولي لي بحياتك كيف يقدر النّاس أن يكونوا مثل موسى العركوش وابنه ؟ لو لم أقاسِ من هذين النذلين ما قاسيته من العذاب لما أبغضتهما ، ولما دخل البغض قلبي على الإطلاق . إنّي أبغض البغض .

شهيدة البغض في وقته فضيلة كبيرة كالمحبّة يا زينة . في العالم أناس محبّتهم جريمة — وموسى بيك وابنه منهم . وفي العالم أناس بغضهم إثم — وأنت واحدة من هؤلاء النّاس .

زينة ستعجبين إذا قلت لك إنّي في هذه الدقيقة ، في هذه اللحظة ، شعرت بألم في قلبي . أتصدّقين

أن قلبي انقبض شفقة على موسى العركوش وابنه ؟
أوْ شهيدة . . . (ترتجف)
قولي ما شئتِ ، وادعيني ما شئتِ ، فأنا لست مالكة عواطفي . أُحبّ أن أُبغض والآن أدركت أنّني لا أستطيع أن أُبغض . بماذا تفسرين ذلك ؟

شهيدة إذا سألتِ الياس أو داود فقد يحلّلان ذلك لكِ .
(الياس وداود يدخلان الحديقة من الشارع راكضين)

المشهد السابع

زينة – شهيدة – الياس – داود

زينة (إذ تراهما)
اذكر الذيب وهيّي القضيب .
(بأعلى صوتها) داود ! الياس ! نحن هنا نحن هنا .

الياس (يقترب منهما لاهثاً من التعب)
أين أمّي ؟ أين أمّي ؟

زينة في البيت . ماذا جرى ؟

الياس ألم تسمعا بالخبر ؟ ألم تعرفا إلى الآن ماذا جرى ؟ قصّ عليهما ماذا جرى يا داود . أخبرهما ماذا حلّ بهذا اللئيم وابنه .

شهيدة العركوش وابنه ؟

الياس إي . هل أخبركم أحد ؟

زينة أخبرنا خليل .

الياس إذن ماذا ننتظر بعد ؟ أين أمّي ؟ في البيت ؟

(يركض نحو البيت)

شهيدة ! شهيدة ! تعالي معي . تعالي معي . سنحاصر أمّي الحصار الأخير وأظنّها تسلّم بدون معارضة .

(شهيدة تنهض وتتبعه)

المشهد الثامن

زينة — داود

داود (آخذاً بيد زينة)

كيف تشعرين الآن ؟

زينة داود ! داود ! لا أدري كيف أشعر وبماذا أشعر . أُحبّ أن أرقص . أُحبّ أن أركع وأصلّي . أُحبّ أن أغنّي . أُحبّ أن أقبّل هذا الحجر ، وأن أعانق هذه الشجرة ، وأن أحدّث ذلك العصفور ، وأن أضع كل هذه الأزهار ،

وكل السماء ، وكل الأرض في قلبي . يخيّل إليّ أنّي قريبة من الجنون . هل أنت فرِح مثلي ؟

(تضع يدها على كتفه وتنظر في عينيه)

داود (باسماً)

ألا تخجلين أن تسأليني مثل هذا السؤال ؟ انظري إلى عينيّ . انظري إلى حاجبيّ . انظري إلى فمي . ضعي يدك هنا . (يأخذ يدها ويقبلها ثم يضمها فوق قلبه) هل تريدين خطيباً أفصح من هذا الخطيب ؟

(يقبل يدها ثانية)

زينة (آخذة يديه بين يديها)

أو ، داود ! وكل ذلك من أجل ابنة جاهلة ، ضعيفة مثلي ؟

داود وكل ذلك من أجل ملاك طاهر مثلك .

زينة أتذكر عندما قلت لي لأوّل مرّة « أحبّك يا زينة » ؟ قلها مرّة بعد .

داود أحبّك يا زينة .

زينة بعد .

داود أحبّك يا زينة . أحبّك يا زينة . أحبّك يا زينة .

(يقبل يدها)

زينة (تضحك واضعة يدها على فمه)

يكفي . يكفي . أخاف إذا أكثرت . من إعادتها أن تنسى معناها وتعيدها كالببغاء .

داود هل حدّثت أمّك في الأمر بعد ؟

زينة لم يبقَ خوف من أمّي . خبر إفلاس العركوش سقط عليها كالصاعقة . لكن كبرياءها تأبَى عليها الاعتراف بذنبها نحونا . فالأحسن أن نتحاشى كل ما من شأنه أن يجرح كبرياءها .

(يظهر الياس وشهيدة في الباب خارجين إلى الحديقة وسائرين نحو التفاحة) .

داود أرى الياس وشهيدة راجعين بدونها . فما السبب ؟

زينة لعلّها تأتي عمّا قريب ، ألا تعجب كيف انقلب الياس — كيف كان وكيف أصبح اليوم ؟ وشهيدة كانت سبب انقلابه العجيب كما كنتَ سبب انقلابي .

(إلى الياس وشهيدة وقد اقتربا)

أين أمّي ؟

المشهد التاسع

زينة – داود – الياس – شهيدة

الياس جالسة في غرفتها تبكي وتلطم خدّيها .

زينة (بدهشة)

تبكي ؟

الياس قبّلت يديها ورجليها . توسّلت إليها أن تخرج معنا إلى الحديقة . فكانت تبكي وتقول : « روحوا اعملوا اللّي بدكن اياه . أنا ريتني ما كون . » اذهبي إليها أنتِ وداود لعلّها تستجيب لكما وتخرج معكما .

(زينة تأخذ داود من يده وتسير نحو البيت)

شهيدة ما أغرب أطوار أمّك ! أتصدّق أنّي لم أرَ دموعها حتى اليوم ؟ وما أشدّ تأثير دمعة من عين امرأة جبّارة ، مستبدّة كأمّك .

(تجلس على المقعد)

الياس (واقفاً)

لعلّها تكفّر بهذه الدموع عن هفواتها السابقة . لكن دعينا من الدموع الآن . فلا دموع أمّي

ولا بحار مثلها بقادرة أن تعكّر كأس سعادتي .
(بحرارة) شهيدة !
(يأخذ يديها بين يديه وينظر في عينيها)
أنتِ لي الكل بالكل في هذا العالم . شهيدة ! كنت أعمى فأبصرتُ . وحبّك كان النور في عينيّ .
(يضع يدها اليمنى ثم اليسرى على فمه ثم يجلس بجانبها)
شهيدة ! ما أجمل الحياة !

شهيدة (تقهقه مخرجة من جيبها ورقة ثم تقرأ بتمهل)
« بتاريخه نحن الموقعين في ذيله قد تعهدنا أن نضع حدّاً لحياتنا بواسطة المشنقة . . . » (تضحك)

الياس (يخطف الورقة من يدها بلطف باسماً)
ألا يكفيك هزءاً بي حتى تذكريني بجنوني في مثل هذه الدقيقة التي أحسبها بدء حياة جديدة ؟ كأنّ دهراً قد مرّ من يوم كتبت هذه الورقة حتى اليوم . لندفن الماضي .
(يمزق الورقة نتفاً نتفاً)
فأنا أتعهّد الآن على نفسي أن أشنق كل من لا يرى في الحياة سوى أشواكها وكل من يفرّق بين قلبين يربطهما حبّ كحبّنا .
(تظهر في الباب ام الياس وقد أخذت زينة بيدها اليمنى وداود باليسرى وخليل يمشي وراءهم والكل يسيرون نحو الياس وشهيدة) .

المشهد العاشر

الياس – شهيدة – زينة – داود – ام الياس – خليل

شهيدة (مازحة)

أوتشنق أمّك كذلك إذا أصرّت على رفضها قبول اتحادنا ؟

(إذ ترى أم الياس قادمة)

ها هي قادمة نحونا – فماذا تفعل إذا اقتربت مني وصاحت : « اغربي عن وجهي » ؟ (تبسم)

الياس أنا أكفل رضاها . أنا أعرف كيف أرضيها الآن .

زينة (وقد اقتربت مع الباقين من المقعد . إلى أمها)

اجلسي يا أمّي ، يا حبيبتي ، فقد تعبتِ .

(تجلس بلطف وحنو . الياس وشهيدة ينهضان)

ام الياس (تتنهد تنهدة عميقة وآثار الدموع باقية على خديها)

أوف . . . أوف . . . لا بعرف ، ولا بدري . . .

الياس (بعد سكوت قصير)

اسمعي يا أمّي . كثيراً ما تمنّيت لو لم تكوني أمّي . وكثيراً ما تمنّيت لو لم أكن ابنك . حتّى لقد كرهتك بسبب انقيادك الأعمى للعركوش

وقساوتك على زينة .

(ام الياس تبكي)

زينة (مبكتة)

الياس ! الياس . . .

الياس ما لنا وللماضي يا أمّي . اليوم يجب أن تضحكي وترقصي وإن كنتِ عجوزاً . فابنك الياس كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوُجد . ولم يُقمه من الأموات ، ويردّه إليك إلاّ هذه الروح النقيّة الطاهرة .

(يأخذ شهيدة من يدها ويجذبها إلى الأمام . ام الياس تتنهد)

ولولاها لما كان ابنك الياس من الأحياء . لذلك أطلب إليك أن تباركيني وتباركيها . وأن تقبليها بمثابة ابنتك الثانية .

(يركع مع شهيدة أمام أمه)

ام الياس (متنهدة وباكية)

ايش منّي ومن بركتي أنا ؟ الله يبارككم يا ابني .

(تضع يدها على رأسيهما . الياس وشهيدة ينهضان ويقبلان يدها)

الياس سترين منّا ما يفرح قلبك ويجعل آخرتك سعيدة يا أمّي .

ام الياس إن شا الله بتعيشوا العمر كلّه يا بنيّي . (سكوت)

داود (متقدماً نحو ام الياس)

والآن قد جاء دوري يا ام الياس . أم تسمحين أن أدعوكِ أمّي ؟

(ام الياس تبقى صامتة مطرقة بالأرض)

إنّي أطلب رضاكِ على الأخص لأجل زينة . فهي تحبّ أن تبقى تحت جناحك ما دام لها إلى ذلك سبيل . وأطلب رضاكِ لنفسي كذلك لأنّي، كما قلت ، أُحبّ أن أجد فيك أمّاً ثانية .

زينة (تجذب داود من يده وتركع أمام أمها فيركع داود بجانبها)

أمّي ! أمّي ! باركينا .

ام الياس (بعد سكوت وتردد تباركهما باكية)

الله يكون معكم يا بنيّي الله يبارككم .

(داود وزينة ينهضان ويقبلان يدها)

زينة (تنطرح على عنق أمها)

أمّي ! أمّي ! ما أحسنك عندما تكونين راضية ! ابقي هكذا دائماً .

(تعانق شهيدة) شهيدة ! حبيبتي .

خليل (يقع على ركبتيه أمام أمه ويخرج من جيبه قنينة عرق . يرفعها في يده قائلا)

أمّي . أمّي . باركينا . لا أنا بقدر عيش بلاها ولا هي بتقدر تعيش بلايي .

(الحضور يقهقهون . الياس يأخذ أمه من يدها ويمشي معها ومع شهيدة نحو البيت . داود وزينة يتبعانهم) .

خليل (متكئاً على عصاه)

كِلْ مينْ حبيبه عنده — وأنا بيبعث لي الله .

(يبرم العصا في يده) إي . داود ! داود !

(داود يلتفت إلى الوراء) عاوزك بكلمه .

(داود يرجع إليه)

داود ما لك ؟

خليل (ضارباً بيده اليسرى كتف داود اليمنى)

حط إيدك هون ! (يهز يده)

عندك نقفة دين عروس روح جوّات سبع بحور ما بتلاقي متلها . زينة ما حدا لبق لها غيرك . عيش بصحايفك . أنا مبسوط لك من كل قلبي .

(بعد سكوت قصير)

وينك ؟ ولو طِلْعِت تِقْله — معك تقرضني شي ليره — ليرتين — الليلة بردّلّك ياهم فايض المايه مايه . عيب بها الشوارب إن ما ردّيت لكش ياهم . (يمسك شاربيه)

داود لكن خليل . . .

خليل (يقاطعه)

لا تقول لي كاني ماني — وحياة شواربك وشواربي

هي آخر مرّه . شوعمتني أنا ما بعرفش عيش بلا لعب قمار ؟ بكرا بدوّر لي عا شي بنت حلال متلك وبتجوّز — لا بعود بسكر ولا بعود بلعب — قلت لك وحياة شواربك .

داود (يخرج محفظته ويناوله بعض النقود)

ليتك تبرّ بوعدك ، وتترك القمار . (يتبع الباقين)

خليل عيش وحدك . شاباش لعيونك .

(يقف برهة حائراً . ينظر إلى الدراهم تارة ثم يخرج القنينة من جيبه وينظر إليها أخرى ويغني)

كِلْ مِنْ حبيبه عنده — وأنا بيبعت لي الله !

السّتار

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
الأوثان
كرم على درب
لقاء
صوت العالم
كتاب مرداد
مذكرات الأرقش
ومضات (شذور وأمثال)
النور والديجور

في مهب الريح
دروب
النبي
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون ١/٣
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
نجوى الغروب
من وحي المسيح
أحاديث مع الصحافة
رسائل

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories.

الآباء والبنون

اذا كان لكل أمة أن تزدهي بكتابها وشعرائها،وأن تباهي بعباقرتها وفلاسفتها ومفكريها ، فقد حق لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

إن ميخائيل نعيمه مدرسة إنسانية فريدة ومذهب مضيء من أنبل مذاهب الفكر الانساني العربي والعالمي .

"الآباء والبنون" هذه الرواية تمثيلية هي باكورة ميخائيل نعيمه المسرحية . وقد اقتطعها من صميم حياتنا الشرقية . فيها عرض رائع وتحليل دقيق للمشاكل القائمة أبدًا ما بين قديم الأجيال وجديدها، وذلك في حوار ممتع يجمع بين الجد والهزل ويملك على المشاهد أو القارئ لبه. ظهرت الطبعة الأولى منها في نيويورك فما لبثت أن نفدت وعزّ الحصول عليها . وها نحن نقدمها إلى القراء في طبعة جديدة ، منقحة ، واثقين من اننا نقدّم لهم زادًا ثقافيًا دسمًا ونموذجًا أدبيًا ممتعًا .

الناشر

.72